رحلة سحابة

سمية النقيب

رواية

لا تعرف السحابة تفاصيل الرحلة ولا عدد محطّات الانتظار وأين ستُمطر حباً! وكم الغيوم التي تنتظرها، وكيف تنتهي الحكاية!

وعندما كان القدر يكتب السطور ويرسم الفرح في البدايات، كانت سحابة تعيش الحب بعد اشتعال النيران في المنزل القديم وحصولها على لقب اليتيم، اشتعل الحب، معه كانت حروفها الأولى ومشاعرها العظيمة، والقرار المقدس في مشاركة الحياة واعتباره السيف والقلعة الحصينة!

اسم الكتاب:

رحلة سحابة

اسم المؤلف:

سمية علي النقيب

للتواصل مع المؤلف :

http://www.facebook.com/somangoo.ali

لا يجوز نسخ أو طباعة هذا الكتاب أو نشر أي جزء منه دون ذكر اسم الكاتب والكتاب.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدى المؤلف

إهداء:

إلى خيالي

كعكازٍ قديم اتكئ عليه صاحبه دهراً ثم رحل وتركه وحيداً، أتركك تنصهر بين حبر وورق رواية، وأرحل...!

الكاتبة

سمية النقيب

المحطّة الأولى

عُكّاز

افتح عينيك

"آه كم هو مبهر ضوء النهار، مبهر بطريقة مزعجة تخبرك بأن عليك أن تنهض لتمارس نفس الحماقة وتدور في دائرة الأيام "

ما أثقل رأسك، أرجوك اترك الوسادة ترتاح منه وأنزل قدميك من على هذا السرير

" ولكن أين قدمي! "

هل فكرت يوماً، إن كان بالإمكان استبدال الأشياء؟ الأشخاص؟ أو حتى جزء من جسدك الهزيل! ماذا ان رحلت الأشياء واختفت محبوبتك وتحركت الدقائق أتراها تعود!

" أين تلك العصا اليتيمة، تلك التي تُقيم ظهري ! "

أتوقف عن محادثة نفسي وأستفيق من صدمتي المعتادة بقدمي المبتورة! أتكئ على عصاي وأفتح الستائر، أعيد كل ما فعلته بالأمس كرتم بطيء، أتعثر بإحدى لوحاتي القديمة المبعثرة في هذه الغرفة وأخرج منها!

ألا تكبر هذه المرأة! أظنها تجاوزت الأربعين! لماذا تشدو فيروز من نافذتها كل صباح!

" صار لي شي مية سنة مشلوحة بهالدكان

ضجرت مني الحيطان ومستحية تقول

وأنا عيني ع الحلى والحلى ع الطرقات

غنيلو غنيات وهو بحالو مشغول

نطرت مواعيد الأرض وماحدا نطرني .. "

مزعج صوت فيروز، مزعج لدرجة تدفعك إلى البكاء، تفتح لك صندوق الذكريات، تخبرك بكل حرف كم أنت بائس ووحيد، تُعيد لك الذكريات ولا تُعيدك إليها...! كم أكره فيروز وهذه المرأة!

ومع ذلك لا أحتسي قهوتي إلّا على الشرفة المقابلة لمطبخها ، أستمع لصوت فيروز وصوتها تنادي على فتاها البالغ من العمر ٢٣ عاماً! تناديه كأنه طفلاً صغيراً، تتحدث معه بطريقه أبغضها كثيراً، كم أردت أن أخبرها بأن ابنها أصبح يافعاً وأنها تجاوزت الأربعين وعليها أن تكبر قليلاً، لكن ما إن أراها أتعلّق بعينيها! ولا تنطق شفتاي بغير " صباح الخير "

كم أنا أحمق وكم هي شريرة هذه المرأة، يا تُرى أي إكسير شربت منه لتُبقي على شبابها! تبدو كفتاة يافعة بالعشرين...!

أتحجج بأني أسقي الزرع أمام منزلي، رغم أننا بفصل الشتاء والشجرة أمام منزلي قد ماتت منذ عقود، أسقيهم لأراها وهي تخرج من منزلها، تضع شالاً صوفياً رمادي اللون حول عنقها وترتدي حجاباً زهري، أردد بداخلي " آه كم هي صبيانية! "

تُسلم على جارتنا العجوز وتُعيد لها أطباقها، تبتسم لذلك الشاب وتدعو له بالتوفيق، تُدير محرك سيارتها، تصدح السيارة أيضاً بصوت فيروز! " آآآه فيروز مجدداً " أتذمر بداخلي

" نسم علينا الهوا من مفرق الوادي

يا هوا دخل الهوا خدني على بلادي

يا هوا يا هوا يا للي طاير بالهوا

في منتورة طاقة وصورة خدني لعندن يا هوا .. "

تنادي على ولدها بدلال مجدداً

" حبيبي هل لك أن تستعجل قليلاً "

يأتي مسرعاً، تضربه على رأسه، " أصلح سيارتك اليوم، لستُ سائقتك الخاصة "

يرد عليها " اذاً دعيني أقود أنا "

تقطب حاجبيها " هل أبدو لك بلهاء! لن أسلمك سيارتي أبداً "

وقبل أن تبتعد بسيارتها تفتح نافذتها، تنظر إليّ مبتسمة

أبادرها " صباح الخير "

ترد بلطف شديد " صباح النور "

أتساءل، لماذا لا تبادر هيَّ أبداً! مثلما تفعل مع البقية! ألا أستحق التقدير مثل البقية! وإن كنت كذلك لما ترد بهذا اللطف الشديد! تعاني من انفصام بالشخصية هذه المرأة!

تغادر سيارتها الحي، أردد بسرحان شديد

" شو بنا شو بنا يا حبيبي شو بنا

كنت وكنا تضلوا عنا وافترقنا شو بنا .. ! "

" آآآآآآآه كم أكره فيروز! "

أجر قدمي للمنزل مجدداً، أعاود سكب كوب قهوة آخر، أتعثر وأتكئ على باب هذه الغرفة الخشبي ليواسيني بغرز شوكة صغيرة في إصبعي، يبدو الأمر شاقاً أن أفتح الغرفة وأبحث عن

طلاء لإخفاء نتوءات الخشب من هذا الباب البائس، وقبل أن أجرُء على فتح بابها، رن هاتف المنزل، لأول مرة منذ عدة أشهر يرن هاتفي!

-" مرحباً .. ماذا! ..لماذا؟! ... ستتزوجين؟ وعليّ أنا تحمل مسؤوليتها؟ "

-" هل تريد أن ينتهي بها الحال مثلما انتهى بك وحيداً؟ دون أحد؟ في منزلٍ مهجور مع الألوان؟! "

استفزَّ كلامها ذكريات الوحدة القاتلة بداخلي، شددت على قبضة يدي وأجبتها بصوت يملأه العناد " أحضريها غداً "

-" بل اليوم، غداً حفل زفافي "

-" حفل! بهذا العمر وتقيمين حفلاً؟! "

-" أجل، إنها في الطريق اليك "

-" حسناً ولكن "

-" لكن ماذا؟ "

-" عليك أن تنسينها تماماً، مثلما قمتِ بنسياني في الماضي "

-" لا أرغب بتذكر أيٍّ منكما "

ما أقسى هذه المرأة، كيف تتخلى عن ابنتها بهذه السهولة؟ وكيف لي أن أربي فتاة بهذا العمر وحدي! وإن كانت ستتخلى عنها لماذا قامت بتربيتها منذ البداية، أتسمي نفسها أماً!

أقفلت سماعة الهاتف ولم تمضِ خمس دقائق حتى وصلت الفتاة، خمس دقائق أخرى كنا نقف كلينا أمام الباب

" ألن تسمح لي بالدخول؟ "

أجبتها وأنا أطيل النظر لعينيها " من تشبهين؟ "

" تقول أمي بأني أشبهك! ولكن لا أرى ذلك، أنا أجمل بكثير "

" هه، اذاً فوالدتك محقة، تشبهينني كثيراً، تفضلي بالدخول "

" أعرف أن الأمر كان مفاجئاً لك، أرجو أن تجهز غرفة خاصة لي بحلول الغد "

قالت جملتها وهي تحوم حول المنزل، جلست بعدها على احدى الكراسي واضعة قدماً على الأخرى ونزعت حجابها بحركة سريعة، قامت بفك ربطة شعرها وأعادته، وهي تتحدث بسرعة الضوء عن أمور عديدة!

" لماذا أنتِ ثرثارة جداً! هذا المنزل اعتاد على الهدوء حافظي عليه رجاءً "

ضحكت والتفتت إلي، أجابتني بغرور " لا توجد فتاة غير ثرثارة، ومع ذلك فإن ثرثرتي ليست كالبقية، ستعتاد عليها ثم تدمنها قريباً "

" يا لكِ من فتاة مغرورة! حسناً اختاري احدى الغرف لأجهزها لكِ "

بدأت بالتجول، ذهبت للمطبخ لتشرب بعض الماء وهي تهمهم " لم تسألني حتى ماذا أشرب! "

" أعتذر لسوء تصرفي، انه أثر المفاجأة "

اتجهت نحو تلك الغرفة، وقبل أن تحاول فتحها نهضتُ من مكاني، اقتربت منها وأنا أجر قدمي وأتكئ على عكازي أمسكت بيدها قبل أن تفتحها، نظرت إلي وكأنها تتساءل بعينيها، أجبتها " لا، اختاري غير هذه الغرفة "

نظرت لي بتحدي " بل أريد هذه الغرفة "

" إنها غرفة خاصة بي "

" حسناً سأختار غرفة أخرى بشرط "

" ومن قال إن بإمكانك وضع الشروط ؟ "

" شرطي هو أن تفتحها لي، وتسمح لي بدخولها "

" ولماذا سأفعل! "

تغيرت نبرة صوتها ونظراتها وتحولت إلى قطة وديعة

" لأنه أول طلب أطلبه منك، هل سترفضه ؟ "

لم أستطع مقاومة عينيها الصغيرتين، " حسناً ولكن ليس الآن "

أمسكت بيدها وعدنا لنجلس على الأريكة، سألتها وأنا ممسكاً بيدها "كم أصبح عمرك الآن "

" اثنان وعشرون عام "

التفتت لعينيّ وسألتني " وأنت ماذا تفعل ؟ "

" لا شيء، أقاوم الوقت والحياة "

" بماذا يجب عليَ مناداتك ؟ "

" بماذا غير اسمي ؟ يام "

ضحكت ووقفت أمامي مادة يدها إلي، أمسكتُ بيدها واتكأت بالأخرى على عكازي، وقفت أمامها

قالت مبتسمة " مرحباً يام، أنا نور "

المحطّة الثانية

صندوق

لماذا تملأ الفوضى منزل هذا الرجل ؟!

أهذا حال الرسّام! وأهل الفن العظماء! ولكن لحظة، عظماء! لا أرى أي مظاهر للعظمة هنا؟ إنها مجرد لوحات لم يراها أحد من قبل ولم يعترف بها أحد سِوى جدران غرفته!

أهذا ما عاش وحيداً لأجله!

قلتُ جملتي الأخيرة بغضب وأنا أنفض الغبار من احدى لوحاته المتناثرة في كل مكان، كنتُ ناقمة على كل لوحاته فقد تركنا ليعيش معهم!

بعد ساعتين من التنظيف وإعادة ترتيب المنزل جلستُ منهكة دون حتى أن أخلع مريول المطبخ، وأنا أعيد لف شعري وقعت عيني على صندوق قديم، يبدو كصندوق ذكريات، توقفت عن لف شعري، واتجهت للصندوق وكأنني وجدت كنزاً! فتحته ووجدت ما كنتُ أريده، مفتاح الحديقة السرية، غرفة يام المغلقة!

" عظيـم! "

اتجهتُ للغرفة، اقتربتُ من بابها وأنا أحاول خلع هذا المريول وربطة شعري مازالت حول معصمي، أدخلت المفتاح وتحرك الباب

" ما للذي يخفيه هنا يا ترى! "

كانت الغرفة مظلمة، اقتربت من الشباك وفتحت الستائر الثقيلة، وبدأت أجول بناظري حول الغرفة، غرفة مربعة صغيرة، مرسم خشبي موضوع بزاوية الغرفة وعليه لوحة لم تكتمل، أرفف خشبية حول الغرفة عليها العديد من الرسومات المختلفة مرتبة بطريقة مبدعة وكأنها معرض فني لا

تشبه أبداً تلك المترامية حول المنزل، وكأن شخص آخر قام برسمها! بدأت أجول حول الغرفة، اقتربتُ من تلك اللوحة على المرسم، إنها لفتاة لم يرسم منها سوى عينيها وجزء من شعرها، ما إن أمسكتُ اللوحة بيدي حتى ظهر ورائها لوحة أخرى! رسمة مقسمة، فيها طفلة صغيرة بعدة مراحل من عمرها! وضعتُ لوحة الفتاة على الرف وبدأتُ بتأمل الأخرى، إنها أنا! أنا الطفلة المرسومة على هذه اللوحة! شعرت بسعادة تسري بكل خلية من جسدي، إذاً فقد كان يرسمني! ضحكتُ بنشوة طفلة صغيرة كتلك التي على اللوحة، ثم عدت لتأمل الفتاة، من هي يا تُرى!

أعدت اللوحة إلى مكانها، وأخفيت تلك التي تخصني، لا أريده أن يعرف بأني رأيتها، عدت أجول حول الغرفة وأتأمل كل رسمة وكأنني أجول في متحف اللوفر في باريس! وما إن أقف أمام لوحة حتى أفكر " لماذا رسمها! "كل لوحة تبدو كأسطورة أريد معرفتها، نظرتُ إلى ساعة يدي وهممت بالخروج من الغرفة قبل أن يعود للمنزل..

" آه قدمي ، لماذا يُضرب هذا الإصبع الصغير الفقير دائماً برجل أي منضدة! "

انحنيتُ ممسكة بإصبعي بتألم، ووجدتُ سراً آخر تحت المنضدة، صندوق كبير لا يُعرف لونه من الغبار الذي يعلوه

لم أقاوم الفضول بداخلي، أخذته وجلست معه على الأرض وفتحته!

أمسكتُ بقصاصة ورق صغيرة كُتِبَ عليها:

دم أزرق

من لا ينهق، يكد ويكدح، ويدور مع القطيع حول الساقية الملعونة،

يتخلى عن أبسط حقوقه ويبتر ذراعه إن لم تلوح للملك ويقطع لسانه إن لم يتغنى بالوطن،

ويقتل كل أحلامه ويحيا مثلما اختار له الوطن، ويضحي بنفسه وأبنائه من أجل الوطن

فهو لا يستحق الحياة ولا ينتمي إلى هنا ودمه أزرق!

حرف الحاء

كم أغلقت الأبواب باب باب، لأختلي بورقة ورقة وقلم قلم وكتاب كتاب!

كم اشتكت سلتي من ثقل الكلمات التي تملأ الورق المتلف، كم ترجتني الحروف أن أنطقها بدل الكتابة!

وكم تعبت شفتاي من ترديد الكلمات والحروف، وتهت بينهما، هل أنطق الحروف أم أكتبها!

وكتبت كل الحروف ونطقت كل الكلمات، أما حرف الحاء فقد استعصى عليّ نطقه وكتابته من هول الكلمة التي اخترتها له

تمرد واستعصى عليّ، إلى أن اقترب الألف والكاف لحمايته وقد أقسموا على ألاّ يفارقوه، تنازل عن عرشه وقبل بالحبر والورق صديقاً فكتبت أحبك ولم أنطقها أبداً!

اللون الزهري

ما هو اللون الذي تتركه نار الحريق بعد أن تأخذ كل ذكرى وحب وفرحة معها! لون الدمار! الحزن!

أم أنه لون اللاشيء! فلم أرَ أنا ذلك اللون، إنه جزء مفقود من ذاكرتي! لا أعرف كيف يبدو بعدها العالم!

إنه فقط لا شيء، أمسكت بالقلم والورقة ومثل أطفال العالم قبل الكتابة نعرف الرسم، فرسمت وأنا بعمر الخامسة..

أب وأم وطفلتهم، ثم أتت النار الحمراء والتهم اللهيب الأزرق كل شيء وضاعت الطفلة بين الألوان والأصوات!

توقفت في آخر صفحة في كراسة الحكاية، ماذا بعدها! بأي لون يكون الضياع! رفعت يدي، اقتربت المعلمة

قالت لي اللون الزهري، اختاري اللون الزهري!

كانت قصاصات من احدى المجلات القديمة، مرتبة بداخل الصندوق وبعض الرسائل بجوارها! وكل تلك الكتابات لنفس الكاتبة، وعنوان المرسل في الرسائل هي نفسها أيضاً، تجرأتُ أكثر وقمت بفتح احدى الرسائل!

((معك أصبح ملجأ يخفيك عن قسوة العالم، عن كل حزن قد يسكن عينيك للحظة،

ملجأ يطرد كل شعور مثقل قد يزورك ولكن قل لي بربك كيف يتكئ ملجأك عليك!

كيف يراك سنده الثابت رغم كل متغير وكل زعزعة تنزع هدوء الساعة معك!

أراك عالمي الذي لا أغادره في الحلم والغد، لا أبتعد عنه وإن شنّ كل ما بداخلي الحروب ضده،

يبقى هو انتصاري الوحيد وكل هزائمي! ثم أصبح في كل لحظة شوق على

أتم الوله لأحارب كل ما قد ينتزع مني عالمي، وقضية قلبي التي لا أتنازل عنها وحلمي الذي وجدته بصدفة قدر لا يعرف أنه اوقعها بين يدي قلب أصبح أماً وموطناً يضم بداخله ويخفي محبوباً مولوداً بين الحلم والهيام!

إلى موطني ومحتلي وشعبي، للساعة ويوم وبكل استسلام فقد وهبتُ قلبي إليك وتوقف عقلي معك

وإن الزمن تغيرت قوانينه وصار لا يعدو بدونك وإن أعظم الحروب أصبحت ابتعادي عنك

وأجمل الشعور هروبي اليك وأن روحي تشفى منك وأن عيناي تنظر الحياة فيك

وأني عرفت الحب معك وإليك ومنك وفيك!))

أسمع صوت قادم إلى الغرفة، ولا أتحرك من مكاني، صوته ينادي بإسمي " نور .. نور .. نــور "

وعيناي معلقة بآخر سطر في الرسالة " المرسل .... نــور! "

التفت، كان يقف بعكازه ينظر إليّ، يحاول أن يكبت غضبه مما فعلته، أقفلتُ الصندوق وأعدته مكانه وقبل أن أقف، وضع عكازَه وهمّ بالجلوس بجواري

" لماذا يبدو شعرك بهذه الفوضى؟! "

نظرتُ إليه متعجبة! كنتُ أنتظر عتابه لي ولكنه فقط أمسك بيدي وأخرج ربطة شعري وقام بلفه لي! وهو يتحدث

"كيف وجدتِ مفتاح الغرفة ؟! "

" في الصندوق الصغير على الرف "

" لماذا أنتِ مزعجة ومتطفلة بهذا الشكل "

" لستُ كذلك، كنتُ أقوم بترتيب المنزل فقط "

" ومن طلب منك أن تقومي بكل هذا "

" لا أحب أن أعيش بفوضى كتلك "

نظرتُ لعينيه وسألته " من هي نور؟ "

ضحك وهو يحاول الهرب من سؤالي " أنتِ هي نور، أم أنكِ فقدتِ الذاكرة "

" أرجوك.. أخبرني من هي نور! "

" سأخبرك بكل شيء ولكن ليس الآن، انهضي واذهبي لتغيير ملابسك فقد امتلأت بالغبار، ولنأكل، أحضرت غداء سيعجبك كثيراً"

" آه، أنا جائعة حقاً "

كنتُ أنظر لعينيه ونحنُ على طاولة طعامنا، كانت تائهة وكأني أعدت له ذاكرة مفقودة! وكأن الحكاية تبتدئ من جديد! سألته

" هل أمي تعرفها؟ ... نور "

" هل يقتلك الفضول لمعرفتها؟ "

" أعني، أن أمي لم تحكي عنها أبداً "

" لا تعرفها "

" أخبرني إذاً، من هي نور؟ "

" سأخبرك في المساء، أريد أن آخذ قيلولة الآن "

آه كم هو وغد هذا الرجل، لماذا يستمر بتأجيل الحكاية؟ أكاد أموت من شدة فضولي ولا أريد أن أترجاه أكثر، رددت بكل برود

" حسناً إذاً، المساء أو بعد غد، لن تهرب أنت ولن تختفي القصة "

ضحك بصوت عالي، وأخذ يُنهي العصير وذهب لغرفته، فكرت أن أعود للغرفة وأقرأ كل الرسائل لعلّي أعرف كل شيء، لكن قررت انتظاره، سأقرأها معه وأنا أستمع إلى حكايته.

كم هي مملة إجازة الصيف، أحاول الانشغال بأي شيء عدا التفكير بوالدتي، التفكير بأنها تخلت عني بكل بساطة وكأنها كانت تربي جرواً صغيراً وما إن ملت منه تخلّت عنه! توقفت عن التفكير، اقتربتُ من الشرفة، أتأمل المنزل المقابل، تبدو صاحبته امرأة أنيقة، فأصائص الزرع مرتبة بشكل بديع، قررتُ التعرف إليها لأقضي على هذا الفراغ..

ذهبتُ لغرفتي أخرجت ملابس جميلة، رتبتُ شعري ووضعت بعض مساحيق التجميل الخفيفة، ارتديت عباءتي وذهبت أطرق بابها، جاءني صوتها بعد الطرقة الثالثة " من هناك؟ "

" أنا جارتكم من المنزل المقابل "

فتحت لي الباب وهي مبتسمة، أدخلتني المنزل وسلمت عليّ وبدأت بسؤالي مباشرة " أي منزل تقصدين؟ "

أشرت إلى منزلنا " هذا، منزل يام "

" هل أنتِ أحد أقربائه؟ "

ابتسمت لكلامها " تستطيعين قول ذلك، أنا قريبته "

أشارت بيديها للغرفة الأقرب من الباب " تفضلي .. تفضلي "

أدخلتني الغرفة وذهبت بسرعة وأحضرت الشاي وبعض الكعك والحلويات، تساءلتُ متى حضّرت كل هذا!

" ما اسمكِ صغيرتي؟ "

ما بال هذه المرأة! هل أبدو كطفلة في العاشرة! صحيح أني قصيرة القوام ولكن لا أبدو كطفلة اطلاقاً!

كانت تنظر إليَّ مبتسمة " هل انزعجتِ من صغيرتي؟! "

" لا مطلقاً "

" كم عمرك؟ عشرون! "

"اثنان وعشرون"

" تصغرين ابني بعام إذاً "

" لديكِ ابن واحد فقط؟ "

" أجل، ونعيش وحدنا بعد أن غادرنا أباه"

ثم أعادت سؤالها " ما اسمك؟ "

" نور "

" نـور! "

أعادت اسمي وهي مبتسمة وبدا عليها الاستغراب!

" إنه اسم منتشر كثيراً "

ضحكت لجملتي " بالفعل منتشر كثيراً "

" أخبريني عنك يا نور "

" أنا أدرس في الجامعة، في السنة الأخيرة، تخصص جرافكس "

" إن احتجت أي مساعدة فأنا في الخدمة "

" هل ستحضرين لي الكعك " قلت جملتي من شدة اعجابي بكعكها اللذيذ، وانتبهت مؤخراً بأني مخطئة بجملتي

" أعتذر، أنا متسرعة بكلامي، كعك لذيذ جداً لهذا .. " قاطعتني

" وماذا في ذلك! سأحضّر لكِ الكعك وكل شيء لذيذ "

" حقـــاً .. رائع، يبدو أنني سأعيش هنا في منزلك "

كانت تضحك لكلامي، ضحكتها رائعة، تغمض عينيها في كل مرة، ولا تفارق الابتسامة وجهها أبداً، أحببتها من الوهلة الأولى

" أنتِ مرحب بكِ في أي وقت عزيزتي "

" شكراً "

وبينما نحن نتحدث، إذا بشاب طويل، لم أعرف من شكله غير أنه طويل جداً، دخل فجأة للغرفة " أمي أنتِ هنا "

لم أقوم بأي ردة فعل، فلا حجابي ولا عباءتي بجواري لأغطي رأسي، عاد أدراجه بسرعة وهو يردد " أعتذر .. أعتذر "

التفتُ لوالدته وقد ملأ الخجل وجهها " أعتذر يا ابنتي، هذا ابني آسر، هو فقط غير معتاد على وجود ضيوف في منزلنا "

" أوه، يبدو أنني مزعجة حقاً "

" لا لا .. لم أقصد هذا، إننا فقط اعتدنا على الوحدة وألاّ يزورنا أحد، ولا يعرفنا أحد غير جدران هذا المنزل "

" لماذا؟ أليس لكم أهل ولا أصدقاء؟! "

" أهل! لا ليس لدينا أهل، ونملك بعض الأصدقاء المنشغلين دائماً "

عادت تبتسم مجدداً وهي تحدثني " أنتِ فتاة لطيفة حقاً، تعالي دائماً لزيارتي ولا تترددي أبداً "

عدتُ للمنزل منتشيه ذلك اليوم، حتى أنني لم أُعاود فتح حكاية الرسائل، فقد أخذتُ كل الوقت وأنا أحكي عن جارتنا الجميلة الرقيقة، وتذكرت مؤخراً " أوه، لم أسألها عن اسمها! "

" سأسلها غداً " أكملتُ جملتي ثم دخلتُ بعدها غرفتي لأنام.

الساعة الثالثة فجراً، أشعر بألم يُقطّع أحشائي، يتصبب العرق من جبيني، أنادي عليه بصوت متقطع وأنا ألهث " أ.. يام .. يام "، ولا يسمعني، حاولت أن أمد يدي لهاتفي كي أتصل به، أمسكت الهاتف واتصلت " يام أنا متعبة، هلّا جئت إلى غرفتي؟ " جاء إليّ مسرعاً، أخبرته بأن يحضر لي علاجاً مهدئ لهذا الألم " أين ذهب؟ أشعر بأني سأموت قريباً! "

طرق بعدها غرفتي وهو ينادي " نور، أحضرت لك الطبيبة! "

" ماذا طبيبة! ولكن الأمر لا يستدعي ذلك، كان يكفي العلاج "

دخلت الغرفة، كانت جارتنا! يبدو على وجهها القلق والخوف عليّ! نظرت إليّ مبتسمة " إنه مغص بسيط، يبدو أنه قولونك العصبي، لا تقلقي "

أحضرت علاجاً من منزلها واعطتني إياه، وبعد أن شربته جلست بجواري ممسكة بيدي وهي تقول " سيزول .. سيزول الألم الآن، سأذهب لأحضر بعض الماء والعسل لأجلك "

همّت بالنهوض، أمسكتُ بيدها وسألتها " ما اسمك ؟! "

ابتسمت لي " هل تذكرتي الآن أن تسألينني؟ "

وأجابت " حسناً... اسمي نـــور "

المحطّة الثالثة

نور

الساعة الثالثة فجراً، أيقضني آسر

" أمي، جارنا يـام، يبدو أن قريبته مريضة "

" ماذا! "

نهضتُ مسرعة، لبستُ عباءتي وحجابي وخرجت معه، كان يقف مذعوراً أمام منزلي، يتحدث بصوت مقطوع النفس

" نـور، انها تتألم ، هلّك أن تُساعديها ؟! "

رددتُ عليه مطمئنة " بالطبع ، سأذهب إليها حالاً "

كانت تبدو شاحبة، ويملأ الخجل عينيها، بعد أن سألتها، عرفت أنه القولون، ذهبت للمنزل وأحضرت علاجاً لتهدئتها، كان يقف خارج الغرفة متوتراً

" هوّن عليك، إنه انتفاخ بسيط، ما الذي أكلتموه على العشاء! "

" اشتريت بعض الأكل من أحد المطاعم "

" اذاً فهو أكل المطعم، لا عليك، سيهدأ الألم الآن وستنام هانئة "

تركته ودخلت إليها، كانت وحيدة جداً، سارحة في شيء آخر بعيد جداً عن هذا المكان، عرفتُ أن بداخلها الكثير من الألم، كان هو سبب ألمها الجسدي لا الأكل.

سألتني وهي تتألم " ما اسمك؟ "

ابتسمتُ لها " هل تذكرتي الآن أن تسأليني ؟! "

" أجل "

" حسنا.. اسمي نــور "

اتسعت حدقة عينيها، لا أعرف أهو بسبب تشابه أسمائنا، أم هناك سبب آخر لصدمتها!

لكنها أمسكت بيدي ورفضت ذاهبي! جلستُ إلى جوارها مجدداً، همست لي " هل يمكنك البقاء بجانبي إلى أن أنام؟ "

بقيتُ بجوارها، قرأتُ بعض الآيات لتهدأ وسألتها " ماذا هناك يا ابنتي! ما الذي يزعجك ويسبب لكِ الألم! "

أجابتني بسؤال " هل هو صعب جداً! العيش وحيدة؟ هل يبدو صعباً أن يتخلى عنكِ أقرب الناس! "

" بالتأكيد هو كذلك، أن تواجهي الحياة بسيفك ولا جيش معك "

" وهل يمكن هذا! "

" بالطبع هو ممكن وأكيد، أتدرين أجمل ما فيه؟ "

" ماذا! "

" أنكِ تقودين انتصاراتك لأجلك فقط، لا أحد له الفضل بها، إنها منكِ واليكِ "

رفعت رأسها من على وسادتها، أعادت لف شعرها، أسندت ظهرها على السرير، ابتسمت وهي تكمل حديثها

"كيف يكون اسمي نور وكل ما أراه مظلماً! كيف وكل من حولي كظل أسود لا ملامح لهم! لا أعرف كيف يبدون! "

" عليكِ فقط أن تُضيئين أكثر "

" ومن أين أستمد الضوء؟ "

" لستِ جسماً معتماً يستمد ضوئه، أنتِ نجمة بالفعل، أنتِ نـور "

ضحكت لكلامي، وتغيرت نبرة حديثها " أتدرين لا أعرف من أسماني نـور! لم تخبرني أمي من قبل، ولكن أعتقد أنه أبي، ماذا عنكِ؟ "

" إنها قصة طويلة وعليكِ أن تنامي لترتاحي "

تغيرت نبرة صوتها وأجابتني بحزن " أعتذر إن كنتُ أزعجتك، سأخلد للنوم ويمكنك أن ترتاحي في منزلك "

" لا لم أقصد أنكِ تزعجينني، كنتُ أخاف أن أزعجك أنا بقصتي، فهي طويلة "

" أحب أن أسمعها، فلم يحكي لي أحد من قبل أي قصص، كانت أمي تكره الحكايات، الحقيقية والخيالية "

" اذاً سأحكي لكِ إلى أن تنامي، ولكن سأتصل لآسر أولاً كي لا ينتظرني "

اتصلت نور ليام أيضاً وأخبرته بأني سأبقى عندها، خلعت عباءتي، نكزتها لتفسح لي لأجلس على السرير بجوارها، تغطيتُ بلحافها وبدأنا رحلة أعادتني لكل ذكرى

"كنتُ أحمل اسماً مختلفاً، لا أعرفه حتى اللحظة ولا أستطيع تذكره فقد اختفت ذكرياتي قبل عمر الخامسة، ما أتذكره هو طفلة صغيرة تحمل لعبة ممزقة بيدها، أجلس بجوارها أمسح دموعي، صوت سيارات الإسعاف تخترق كل حواسي، أغمض عيني وأفتحها ولكن الكابوس يطول،

صوتي يدوي بداخلي وأنا أنادي " ماما، أنقذيني، أيقضيني " ولكن لا تهزني يدها وهذه الطفلة لا تتحرك من هنا ولا تتحدث، مددت يدي أحاول أن ألمسها ولكن ماذا! يا اللهي! انها مرآة! هذه أنا!

أين أنا! وكيف جئتُ إلى هنا! اقترب مني رجل جثا على ركبتيه وأمسك بيدي، كانت عيناه مليئة بالدموع، قبّل يدي واحتضنني

" أنا عمك وليد، ألّا يمكنك التعرّف عليّ؟ "

أومأت رأسي بلا، أمسك بيدي ومشى بي إلى الطبيب وبدأت أدرك أنني في مشفى، قام الأطباء بفحصي، ثم حاولوا محادثتي " أخبريني يا حلوة ما اسمك؟ "

لا أعرف، لا أتذكر شيئاً، حاولت أن أنطق ولكن بلا فائدة! كانت تنهال دموعي مع كل كلمة أحاول نطقها ولا أستطيع، تحدث الطبيب مع عمي كلاماً لم أفهمه ثم اخذني لمنزله وقد كان في مدينة أخرى، كانت هناك امرأة بانتظارنا قد أعدت مائدة كبيرة واشترت العديد من الألعاب والملابس، أجلسني عمي على الأريكة، ألّا تتذكرين شيئاً؟

أومأتُ بلا، " حتى اسمك؟ "

أشرت مجدداً لا، احتضنني وهمس بأذني " اسمك نـور، منذ اللحظة أنتِ نـور التي ستنير حياتي "

أمسك بيد زوجته وقال: " أنا والدك وهذه أمك منذ اللحظة "

وهذه حكاية اسمي، التفتُ لها فسألتني " وهل تذكرتِ بعدها؟ "

" لم أتذكر، وإلى يومنا هذا لا أعرف اسمي، كنت فقط أحلم كل يوم بحريق في منزل، أحلم بأنّي أنادي على أمي وأبي دون جدوى، عرفت فيما بعد أنهم ماتوا في الحريق ولم يتحدث أحد عن

سبب الحريق، ولم يكن عمي يتحدث عنه ولا عن أبويّ، أخذني إلى طبيب نفسي بعدها لأستعيد صوتي وأبدأ بالحديث "

" وكيف بدأتِ بالحديث مجدداً! "

"كان الأمر بغاية الصعوبة، كنتُ أحاول وأحاول وأفشل في كل مرة عن نطق أي حرف، كلما أحاول الحديث أتذكر أحلامي، ففي حلمي كنتُ أتحدث وأصرخ، لم أكن أحتاج لطبيب لأستعيد نطقي، كنتُ فقط أحتاج لمن ينام معي، يحتضنني عندما أصحو فزعة خائفة، كنتُ أحتاج فقط قلباً يحميني "

" ألم تكن زوجة عمك أماً لكِ! "

"كانت فقط امرأة تقوم بما يجب عليها القيام به، ولم تعرف يوماً كيف تصبح أماً لأي أحد "

" وكيف استعدت نطقك؟ "

" استعدته عندما جاء لمنزلنا فتى صغير، عرفت فيما بعد أنه ابن زوجة عمي من زوجها السابق، جاء ليعيش معنا لوقت قصير ثم اختفى بعدها ولم أعرف أين ذهب، كان يكبرني بخمسة أعوام، يبقى بجواري كل ليلة، يحكي لي قصص خرافية، يمسك بورقة بيضاء ويرسم تلك القصة لي، ينظر إلي ويقول " الآن دوركِ، احكي لي القصة " وكنت أمسك بالقلم وأرسم له قصتي، تلك التي أراها في حلمي، عرف بعدها أني أخاف الأشباح تلك التي تظهر في حلمي، لذا أخبرني بأنه سينام على عتبة باب غرفتي ليحميني من الأشباح، وكان يفعل ذلك كل ليلة! أحسستُ بعدها أن الأشباح التي تأكلها النار لن تظهر مجدداً وبدأت معه بالنطق "

" وأين ذهب الفتى؟ "

" غادر المنزل فجأة ولم أعرف ما السبب! "

" لكنّ النطق لدي لم يكن سهلاً فقد بقيت لفترة طويلة من الزمن أكرر الكلمات، وأواجه صعوبة مع بعض الأحرف "

" مثل حرف الحاء! "

رفعتُ ظهري عن الوسادة والتفتُ لها وأنا متفاجئة "كيف عرفتي؟ "

أجابتني وهي تبتسم "كانت لي صديقة تواجه صعوبة بنطق حرف الحاء "

بدا جوابها غير منطقي وكأنها تخفي شيئاً، توقفتُ عن حديثي مع أذان الفجر، قمنا لنصلي وعدت بعدها لمنزلي.

كان آسر ينام على الأريكة في غرفة الجلوس، دنوتُ منه أتأمل ملامحه، وأحدث نفسي" كيف كبرت بهذه السرعة يا آسر!"

تذكرتُ كم كان يبدو متعباً وهو ينام على أريكة المشفى ينتظرني لأكمل نوبة عملي الليلية، كم كان فتى صبور ذكي، يحمل حقيبته المدرسية ليذاكر دروسه بقربي، يتحدث ويتعرف على الجميع، حتى أنه بدأ بحفظ أسماء الأدوية ومساعدتي بالعثور عليها وترتيبها! تحسست شعره بيدي وأنا أشعر بالأسى عليه " أعتذر يا بُني عن كل تلك الليالي الباردة وعن كل ذلك العناء، أعتذر عن كوني أم وحيدة متعبة "

أمسك بيدي وهو مغمض عينيه " أنتِ أجمل وأروع أم على هذه المجرة "

ابتسمتُ " أعتذر، هل أيقظتك ؟ "

" لا عليكِ، كيف هي جارتنا؟ "

" إنها على ما يرام وأظنها تسبح في الأحلام الآن "

" الحمد لله "

وضع يده على وجهي وهو يقول " يبدو أنك لم تنامي مطلقاً! "

" أجل، كان الحديث مع نور ممتعاً "

" اسمها نور! "

" مصادفة جميلة أليس كذلك! "

" قد تحمل الكثيرات اسمك لكنك تبقين أجمل نور على هذه الأرض "

ضحكت لكلامه، واحتضنته وكأنني احتضن العالم، وكل الأحلام وذرات السعادة، أحتضن ذكرياتي ومستقبلي، أحتضن قلبي بين يدي، عندما تنجب طفلاً، تعيش وقلبك خارج جسدك!

حملني بين ذراعيه بحركة سريعة مثلما يفعل عادة وأدخلني لغرفتي وهو يتحدث بنبرة تهديدية " لا دوام ستأخذين اليوم إجازة لترتاحي " ثم خرج وأقفل باب الغرفة، ما إن وضعتُ رأسي على الوسادة حتى عادت لي ذكريات قديمة أثارتها نور بداخلي، فتحت درجي وأخرجت دفتر مذكراتي القديم، لم أكتب فيه منذ زمنٍ بعيد، أمسكت القلم وعجزت عن كتابة أي شيء!

كتبت فقط " نــور؟ " علامة استفهام كبيرة تدور حولها! من تكون تلك الفتاة!

جاءت لمنزلي عصر ذلك اليوم، كانت تشكرني على الليلة الماضية، وتحمل معها الكثير من الأسئلة، فضولية هذه الفتاة كشخص أعرفه! كنت أتأمل عينيها وهي تتحدث، وأعرف في كل مرة أنها ستسأل عن شيءٍ ما!

" احكي لي أكثر عنكِ "

" هل أنتِ متشوقة إلى هذا الحد لتسمعي حكايتي! "

" أجل، أريد ذلك "

"كنتُ فتاة هادئة ومجنونة بذات الوقت، لا أتوقف عن الحديث والثرثرة، لدي العديد من الأصدقاء وأعيش في بذخ عمي، كل ما اطلبه وأرجوه ألقاه محققاً، كان عمي أو أبي مثلما كنتُ أناديه كآلة تحقيق الأمنيات، وأمي؛ زوجته؛ كانت تعرف كيف تقوم بواجباتها، تُحضّر الوجبات، تُذاكر معي دروسي، تأخذني معها لكل المناسبات، تُقيم لي الحفلات "

" اذاً فقد كانت أم جيدة؟ "

"كانت تقوم بدور الأم جيداً، وبعيدة كل البعد عن كونها أماً "

" وما الفرق! "

"كنتُ أظن أن هذه هي الأم وهكذا تكون! عرفتُ بعدها أن أي امرأة على هذه الأرض يمكنها أن تقوم بذلك وليست كل امرأة يمكنها أن تصبح أماً! "

" وكيف تكونين أماً؟ "

" عندما ترين أحلامك وآمالك تسير على الأرض أمامك! عندما تتصعّد روحك مع جرح صغير بيد طفلك! حينما يصبح الكابوس الذي يراود طفلّك أشد أعدائك وتجدين نفسك ملاكاً حارساً من الأذى! من الوجع ومن أي دمعة تنزل على قلب طفلك "

" ولكن كيف انتظرتِ منها كل ذلك وليست أماً بيولوجية لكِ؟ "

" في الحقيقة لم أنتظر منها شيئاً، اكتفيت بهذه الحياة الهادئة وواصلت العيش "

" ومن كان رفيقك في كومة الجمود تلك! "

" حبر ورقة وكتاب، ثلاثية البقايا "

" البقايا! "

" البقايا هم العائدون من الموت، المقاتلون في وجه الفقر، من تلفظهم أوطانهم، والناجون من الحياة "، كانت تستمع لي وعيناها معلقة مع كل حكاية، وكان الوقت يمضي سريعاً معها، وأجد نفسي أتعلق بها أكثر وأحب وجودها في منزلي، حتى أصبحتُ أنتظرها عصر كل يوم ولا أتركها تذهب حتى تشاركني وجبة العشاء، أصبح آسر يشتاط غضباً وغيرةً منها، فلا يسلم عليها حين يراها ويكره نطق اسمها حتى! وراح يتقرب من يام لأول مرة وكأنه ينتقم مني!

اتصلتُ لها ذلك اليوم، طلبتُ منها أن تشاركني التسوّق، أردتُ أن أستغل أيام عطلتها الأخيرة، خرجتُ من المنزل ممسكة بحقيبتي ومفتاح سيارتي وأنا متلهفة، كان آسر يجلس بجوار المنزل على غير عادته! سألته " ماذا تفعل هنا حبيبي؟ "

أجابني بنبرة غاضبة " لدي خططي الخاصة، أنتظر صديقي مثلك تماماً "

ضحكت لكلامه " ومن صديقك العزيز هذا؟ "

" لا شأن لكِ، أووه انظري ها هي غاليتك خرجت من منزلها "

اقتربت نـور وهي تُشع كعادتها، كان يتحاشى آسر النظر إليها، ابتسمت له وهي تقول "كيف حالك آسر؟ " وقف آسر، نظر إليها، ابتسم وهو يرد على سؤالها بكل سرور " أنا بخير، كيف حالك أنتِ؟ "

كنتُ مصدومة من ردة فعله! وبقيتُ أراقبهما، ردت نور بنبرة خجولة على غير عادتها أيضاً " جيدة بما فيه الكفاية لأخرج للتسوق "

أجابها متفاجئاً " حقاً! هل ستخرجون للتسوق؟ "

بالرغم من معرفته المسبقة بهذا الأمر! ثم أكمل حديثه " هل تريدون مني ايصالكم؟ "

أجابته نور " ولكن خالة نور تعرف كيف تقود جيداً! "

نظر لي وهو يقول " ولكن ألم تختفي نظارتك هذا الصباح؟ "

تساءلت! ألم يكن ينتظر صديقه! وما سر التحول العجيب! ألقيتُ بنظرة خاطفة لحقيبتي التي أمسكها مفتوحة ووجدت النظارة بداخلها، نظرتُ إليه مجدداً وأجبته " أجل أضعتها، هل يمكنك إيصالنا؟ "

كان طوال الطريق يحاول فتح الموضوع تلو الآخر للنقاش والحديث المستمر، عرفتُ وقتها أنه يريد قضاء وقت مع نور ويقوم باستغلالي! كيف لم ألاحظ هذا من قبل! كنت أظنه يكره تقربي منها! ويدّعي عدم حبه لها! أكان يغار عليّ أم عليها! يا له من ولد لعوب!

ابتداءً من اختياره للأغاني طوال الطريق وانتهاءً بابتسامة لم تفارق وجهه في هذا اليوم عرفتُ أنه مغرم بها تماماً! والحقيقة أني أيضاً أغرمت بها، وجود نور في حياتنا غيّر الكثير، إنها مثل مضخة ألوان زهرية جميلة، تنشر الحياة بيننا، كم كنا بائسين نحن الثالثة قبلها، أنا وآسر .. ويام.

كان يام ينتظر عودة نـور ويتصل بها مراراً وتكراراً، يجلس على عتبة منزله، أنظر اليه من نافذة السيارة وأنا أجمع أشيائي لأنزل، يبدو عليه القلق، يتفقد نـور بعينيه! ولا أظنه قد انتظر شيئاً في حياته!

بعد مرور شهرين، كنا أنا وآسر نجلس في منزل يام، نحمل باقة ورد وعلبة شوكلاه، نتبادل الابتسامات، بادرتُ بالحديث " نعتذر يا يام لقدومنا بهذا الشكل، كان يجب أن يحضر آسر مع رجل كبير من العائلة، ولكن لا أحد لنا كما تعلم، وأنا كل قبيلته وجيوشه، فهل تقبل بنا؟ "

أجابني بكل جدية " أنتِ أكثر من كافية، وآسر رجل لا يحتاج لرجال وقبيلة، إنه كافٍ بحد ذاته"

اعتدل آسر في جلسته، نظرتُ إليه ليبدأ الحديث، التفتَ ليام وهو يحاول تخفيف ابتسامته، ويام يصغي إليه باهتمام، أخذ نفس عميــق قال

" يسرني يا عمي أن أتقدم لخطبة ابنتك نـور "

المحطّة الرابعة

ورق وألوان

- " لا أريد، أخاف الزواج والارتباط "

كانت إجابة نور خانقة لي كغاز يتسرب بكلماته السامة إلى داخلي ليجعلني ألفظ كل ذكرياتي وكيف جنيتُ على ضحيتي الثانية، سألتها ممسكاً بيدها وخائفاً من إجابتها " لماذا؟ "

كان صوت أنفاسها وهي شاردة يعلو وقع قطقطات المطر، التفتت إليّ متسائلة " ماذا إن تركني يوماً ما وحيدة! ماذا إن تخلّى عني! كما فعلت أنت في الماضي وأمي الآن! "

كانت عيناها مليئة بالوحدة والخيبات والخوف من خيبة جديدة بعد أن فقدت الثقة بأن أحد ما سيتمسك بها للأبد، أبحرتُ في عينيها وأنا أرى ذلك الطفل فأجبتها " وكما فعلت أمي أيضاً! "

-" جدتي ..! "

كانت إجازة صيفية طويلة حيث قرر والدي أن يمسك بيدي ويأخذني لوالدتي في رحلة طويلة من مدينتنا إلى مدينة المطر كما أسميتها، فأمطار صنعاء استمرت منذ وصولي حتى ودعتني، منزل كبير بحديقة واسعة وأشجار الرُمان تحيط المنزل، أسير بها ممسكاً بطرف ثوب والدي الأبيض، استقبلتنا أمي، أخذت بيدي وأدخلتني المنزل وقبل أن أودع أبي أقفلت الباب!

اقتربتُ من غرفة الاستقبال، أثاث المنزل كرسوم خزفية على جرة فخارية لا يمكن لأي قطعة أن تتجرأ وتختفي فتشوه التحفة الفنية، يجلس على أريكة يضع معصمه اليمين على يدها الخشبية ويدخن بالأخرى ممسكاً بغليون فاخر، أشار لي هذا الرجل الغريب القادم من عالم التلفاز بأن

أقترب وما إن وقعت عيني أمام عينيه الضيقة همس بأذني " اخلع حذاءك المتسخ مرة أخرى قبل أن تدخل المنزل "

نظرتُ إلى والدتي مذهولاً فأجابت " أعتذر، إنها غلطتي " وعدتُ معها إلى باب المنزل لأخلع حذائي، شددتُ يدها وهمستُ لها " أنا خائف من هذا الرجل " ابتسمت وجرتني إليه مجدداً، عندها فقط ابتسم وقال " الآن مرحباً بك "

فكرتُ وقتها " اذاً فهو حذائي المتسخ سبب تجهمه، يبدو وديعاً الآن! " وبينما أنا أفكر في هذا المنزل وصاحبه وأمي وصوت عبد الحليم يدوي من التلفاز ذو الإطار الخشبي، كانت خطوات تلك الفتاة الصغيرة تقترب حتى استقرت واقفة إلى جواري رافعة عيناها لتكتشف الغريب الطويل الواقف بجوارها، لا أحد يهمس سوى صوت عبد الحليم

سواح وماشي في البلاد سواح

والخطوة بيني وبين حبيبي براح

مشوار بعيد وأنا فيه غريب

والليل يقرب والنهار رواح

وان لقاكم حبيبي سلموا لي عليه

طمنوني الأسمراني عامله إيه الغربة فيه

أشار لها الرجل لتجلس إلى جواره، احتضنها وهمس إليها " هذا صديق جديد، سيبقى هنا لفترة، ثم طلب مني أن أُعرف نفسي لها مددتُ يدي مصافحاً لها " مرحباً أنا يام "

صافحتني مبتسمة ثم التفت للرجل فقال: " وهذه نور " وقبل أن أسأل عن ما يجول بداخلي، أخذت أمي بيدي وصعدنا للأعلى، أوصلتني لغرفة صغيرة جميلة كانت قد أعدتها لأجلي، سألتها " من تلك الفتاة، هل هي ابنتك؟ أم ابنة ذلك الرجل؟ "

" نور هي ابنة أخيه، ثم ليس من الأدب أن تقول ذلك الرجل، عليك مناداته عمي "

لم أهتم كثيراً كيف سأناديه، كنتُ مهتماً بنور فقط " حسناً، لماذا نور لا تتحدث! إنها كبيرة بما فيه الكفاية، كم عمرها؟ "

" نور في الرابعة من عمرها، أي أنها تصغرك بخمس سنوات، لا تتحدث لأنها تعرضت لصدمة نفسية بعد وفاة والداها، ونحن نحاول علاجها، تعامل معها بلطف أرجوك "

" وكيف توفي والدها؟ "

" لماذا أنت كثير الأسئلة؟ أخبرتك أن تعاملها بلطف وهذا كافياً، هيا قم بتغيير ملابسك، ثم تعال لتناول الغداء، سأنتظرك في غرفة الطعام "

ذهبت في طريقها وذهب فضولي يسيطر على كل خلية بجسدي عن نور، حتى أني تناسيتُ استقبال أمي البارد وأنها لم تعانقني حتى! وأنها تركتني لتعتني بطفلة شخص آخر!

أسير على السلم المفروش بسجاد فاره وأنا أفكر " لهذا خاف الرجل أن يتسخ سجاده فهو غالي على ما يبدو! "

كان مازال صوت عبد الحليم يصدح

أول فرحة تمر بقلبي وأنا هايم في الدنيا غريب
ولا أحكي ولا أخبي ولا أوصفها لكل حبيب

أجلس في الكرسي المقابل لنور، أتناول طعامي وأنا أنظر لعيناها وأفكر إن كان يمكنني رؤية نفسي بداخل مقلتيها من اتساعها! ابتسمتُ لفكرتي فبادلتني نور الابتسامة " أيعقل أنها سمعت أفكاري! " عرفتُ فيما بعد أنها تُرحب بي بابتسامتها لأن الكلمات لا تُساعدها!

في تلك الليلة وأنا على هذا السرير الواسع حيث يبدو فارغاً كعينيّ التي أفرغتها شوقاً لأبي وأنا أفكر أن الليالي ستتسع أكثر حتى أعود إلى أبي، سمعتُ صوتاً، يبدو كمواء قطة صغيرة، فتحتُ الباب وقد انتابني الخوف، اقتربتُ من الصوت، كان قادماً من غرفة نور الصغيرة، طرقتُ الباب ولكنها لم تجب! عدتُ أدراجي ووجدتني أطرق غرفة والدتي " خرجت من غرفتها مذعورة " ماذا هناك؟ ما الذي أيقضك في هذا الوقت! "

" إنه صوت نور يا أمي، يبدو أنها ترى كوابيساً، لم أجرؤ على فتح غرفتها "

أجابتني بكل هدوء وكأن الأمر اعتيادياً " لا تقلق إنها تفعل هذا دائماً، عُد إلى فراشك "

كان يُفترض أن أمي تعتني بها! فكيف تتركها وحيدة طوال الليل، ثم إنها مازالت صغيرة! لم أدرك يوماً كيف أُشفق على شخص آخر مثلما فعلتُ مع نور!
بقيتُ أُراقب نور، أتحدث إليها وأحكي لها قصصاً، كانت تبتسم وتضحك لحكاياتي، تُحاول الحديث معي دون حروف، فتبتسم تارة وتخاطب عيناها روحي، وتارة تمسك بيدي لألحق بها في هذا المنزل الكبير، فأرى شجرتها الخاصة وأماكنها السرية، على مكتبها الصغير كانت الألوان في كل مكان، أخذتُ ورقة كراسة رسم وبدأت بتعليمها كيف تتحدث معي رسماً لا كلاماً! فسألتها أن ترسم لماذا تصرخ ليلاً، بدأت برسم نيران ووحوش تحترق

" هل تخيفك الوحوش ليلاً؟ "

اومأت براسها بنعم

" حسناً، سأنام الليلة على عتبة باب غرفتك، وأمنع الوحوش من الدخول إليكِ "

هذه المرة لم تكفيها الابتسامة لتعبر عن فرحتها، بل قامت بمعانقتي لتقول شكراً على هذا الأمان! في تلك الليلة نامت نور هانئة، دون صراخ وذُعر بعد أن تأكدت بأنّي قتلت كل الوحوش!

كُنا نرسم الضحكة والسماء، نرسم كل الحكايات، علمتها الرسم وعلمتني الفرح!

وتلك الإجازة الطويلة اخُتطفت بين أيامنا، وجاء والدي ينتظرني، غادرتُ نور، وقبل أن أختفي نادت باسمي! نطقت حروفها الأولى " يـ ..يام "

التفت الجميع في ذهول، أخذها عمها بين يديه وهو يقبلها ويشكر الله، أكملت نور كلامها المتقطع " و و وداعـاً يـ.. يام "

وكانت أجمل حروف من أرق صوت سمعتها، بعمر التاسعة، فرحتُ كجد عجوز يسمع صراخ حفيده الأول بعد ولادته وقد ناداه الجميع باسمه، فأخذ يهلل ويكبر!

تمنيتُ أن أعانقها وأختطفها لأعود بها معي، لنعيش في عالم الأحلام والألوان، أسمع صوتها تحدثني ونقتات على جنون أبي!

لوحتُ لها مودعاً مبتسماً ورحلت، كل هذا كان في المرة الأولى.

" ومتى كانت المرة الثانية؟ "

جاء صوت ابنتي ليسرقني من السبعينات ورنين كلمات نور الأولى، فقت من غيبوبة الذكريات على وجهها مبتسماً وأنا أجول بنظري حول منزلي محاولاً العودة للحاضر لأدرك أنّي هنا في تشرين الأول من الألفين وخمسة عشر!

أجبتها لأن وقع الذكريات اشتد على كاهلي " سأحكيها لك في المرة الثانية، فلنتناول عشاءنا "

" حسناً ولكن سؤال واحد فقط "

" ما هو؟ "

" لماذا تركتك والدتك وتزوجت رجلاً آخر ؟ "

" أشقاها جنون أبي، وولعه بالرسم والسفر، قالت أنها لا ترغب العيش مع مجنون مثله! فتجد نفسها يوماً تملك الدنيا ويوماً آخر لا تجد سوى قوت يومها! أرادت الزواج بصاحب مال ونفوذ في أحد القصور "

" وهل غفرت لها ؟ "

" بالطبع لا، لم يكن عليها الزواج بأبي في المقام الأول وانجابي ثم الالتفات لما ترغب به! كان عليها أن تُفكر بي على الأقل "

" ولكن الحياة كانت صعبة برفقتكم! "

" أبي كان مولعاً بالرسم ولكنه لم يكن سيئاً، كان شغوف بحبها، كانت حبه الأول والأبدي، تركته تائهاً وتركتني يتيماً دون أم!"

بدأت نور بتحضير العشاء مستمرة في حديثها وأسئلتها " لهذا أخشى الزواج، أخاف أن أترك طفلي يوماً أو أن يتركني آسر وطفلي! "

" ولكن يا نور لا يمتد الماضي للحاضر، ولا يجب أن نسقط أفعال ناس على آخرين نحبهم! "

وأكملتُ كلامي "كانت نظرة آسر وهو يسألني عنكِ للمرة الأولى وعن ماهي قرابتكِ بي مختلفة! كانت نظرة انسان واثق من قدرته على البقاء معكِ للأبد! "

أخذت تُفكر بكلامي وهي تائهة بين القصص وبين وحدتها!

عادت تسألني ونحن نتناول عشاءنا " نور التي في القصة هي ذاتها نور جارتنا! أليس كذلك ؟ "

" أجل إنها نور ذاتها "

" ولهذا أسميتني نور ؟"

" ولهذا أسميتك نور "

" وكيف التقيت بها في المرة الثانية؟ "

" غداً يا نور، سأحكي لكِ كل شيء "

ذهبت نور لتختبئ بين خيباتها في غرفتها وقد عاهدتني بأن تُفكر قبل أن ترفض آسر، وعدتُ أنا لسريري أجر قدمي، أمسكتُ بهاتفي وفتحتُ اليوتيوب لأبحث عن تلك الأغنية الأولى بعد اللقاء الثاني ..

قلبي ومفتاحه دول ملك ايديك
ومساه وصباحه بيسألني عليك
كان حبك شمعي فى يوم عيدي
وطفاه الدمع وتنهيدي
من يوم ما ايديك لمست ايدي
وكأنك قلت يا نار قيدي
ومادام مشغول يا حبيبي
مش كنت تقول يا حبيبي
ده القلب جراحه من رمش عنيك
ومساه وصباحه بيسألني عليك

كان صوت فريد الأطرش يعيد توازن الفرحة بين رفوف الذكريات، يُعيد صورة نور العالقة في الجزء الذي لم يبتر من قلبي بفستانها الزهري مرفوع الأكتاف وجديلتين متدلية ونظارة تغطي عينيها ووجنتيها بذلك الإطار الكبير! وتعلوها ابتسامة مُرحبة بفارسها الأول!

يواصل فريد الأطرش وتنهمر ذكريات حبستها أعوام طويلة

يا حبيبي يا ريت ابقى حبيبك
واكون من بختك ونصيبك

دا انا مهما تقسى برضه راضي بك
وتسبني الروح قبل ما اسيبك
قلبي عمل ايه يا حبيبي
ليه تقسى عليه يا حبيبي
وحشته افراحه من شوقه اليك
ومساه صباحه بيسالني عليك
قلبي ومفتاحه دول ملك ايديك

اقتربت نور، مددتُ يدي مصافحاً، أمسكت بيدي وهي تسألني بلهفة " ستبقى هنا؟ "

كم كان صوتها دافئاً، ولا تكرر الأحرف! كنتُ مبتهجاً بسماع كلماتها، حتى خشيتُ أن جوابي قد يفسد تلك النبرة السعيدة في صوتها!

" أتمنى ذلك يا نور، ولكن جئتُ فقط لألقي التحية، فأنا سأغادر البلد بصحبة والدي هذه الليلة"

توقف فريد الأطرش عن الغناء!

خفتت ابتسامة نور، وبدت خائبة الأمل، كانت نور في الثانية عشر، فتاة جميلة مبتهجة يعلوها الفرح، لا تشبه أحد أبداً، جئتها بعد الغياب مودعاً، ولم يكن اللقاء الأخير ولا الوداع الأخير!

المحطّة الخامسة

ذاكرة

أن تبقى وحيداً، بين دفاترك ورفوف ذكريات خالية يعلوها الغبار! فلم يسكنها من قبل أحد! أنت وذاكرتك في صحراء لا يسكنها بشر، أتُراك تهتم إن فقدتها! ونسيت اسمك وعنوانك الذي لا تنتمي اليه! والبشر الغُرباء!

أبقى في غُربة في غرفة لساعاتٍ طوال، تطرق أمي غرفتي وقت الوجبات لتسألني ألن تأكلي؟ أتعجب لِمَ تلقي الأسئلة دائماً! أتناول طعامي على سفرة طعام غريبة! حتى القطط تتحدث وتتشاجر وهي تأكل! عائلة أمي كانت صامتة تماماً وكأنهم يؤدون أحد الطقوس الدينية! لا يعرف خالي في أي صف أنا! ولا يدري جدي كم عمري! وحتى عندما أتغيب عن الطعام لا يسألني أحد عن السبب!

تجتمع أمي بصديقات دائماً ولم تسألني يوماً إن كنتُ أملك صديقة! كيف لأمي أن تكوّن كل تلك الصداقات؟ أتساءل دائماً! وكيف لها ألّا تعرف كيف تُصبح صديقتي! حتى عندما كنتُ أسألها عن أبي، كانت اجاباتها مختصرة دائماً، رغم ثرثرتها الدائمة مع الخالة نهى في الهاتف!

تقول أمي أن أبي تركنا ليعيش مع الألوان! وفكرتُ بهذا كثيراً، إن كان أبي قد رحل عني، فكيف لي أن أمتلك صديق حقيقي! وأنا أعرف أنه سيتركني يوماً! لِمَ قد يبقى أحد مرافقاً لك للأبد! إن كان الأب تخلى عنك يوماً! فاخترتُ أن أبقى وحيدة مخيّرة لا مجبرة.

أنا أُشبه أبي، هكذا فسرت أمي تركها لي وزواجها! ما دمتُ أُشبه أبي فسأتركها يوماً، لِمَ اذاً تُفني عمرها لي! كان كلاهما مُقنع لحدٍ ما! أنا وحيدة في كل الأحوال، لا فرق في المكان الذي سأصطحب وحدتي إليه! لذا بكل بساطة وافقتُ أن أبقى مع أبي.

وبعد أن اخترقت وحدتي الخالة نور جارتنا، تُريد الآن الحكم على وحدتي بالموت! دون أي مرافعة لوحدتي فتدافع عن وجودها! كيف أتزوج! كيف لي بارتباط كهذا! ماذا إن اشتقتُ لوحدتي! هل أترك انسان خلفي محطماً! أم أنّي سأترك طفلاً وحيداً آخر على هذه الأرض! وماذا إن تخليتُ عن وحدتي وتركني هذا الانسان؟ من أين أقتات وحدة أخرى وقد قتلتُ السابقة! إن تركني إلى ماذا سأعود! أبقى بعده أعيش اللاشيء!

وكسرت أول حصون عزلتي المنيعة، رسالة وصلتني عبر حساب الفيس بوك، ترددتُ كثيراً قبل أن أفتحها، ماذا إن استسلمت!

تركتها معلقة، وأجريتُ مكالمة أخرى مع الخالة نور أطلب فيها مقابلتها في أحد المقاهي الهادئة، كانت هي الحل الأمثل أمامي والصديقة الأولى!

تجلس أمامي، تبتسم وكأنها تقول أعرف بماذا تفكرين، أُدرك كم أنتِ خائفة، عيناها دافئة مطمئنة، ما إن أطلتُ النظر في مقلتيها حتى استكانت المخاوف، وبدأتُ أحكي وأشكي وأسأل وأتساءل وكلماتها تُربت على وحدتي القديمة.

وبعد أن رسمتُ لها كيف تعيش الأفكار بداخلي، بدأت حكايتها " أنا يا نور يا ابنتي عشتُ الكثير، ليس من السنين فقط ولكن من قصص الحياة أيضاً، حتى عرفتُ كيف أصنع طريق ومتى أسير عليه "

وكان الطريق الغريب" لقاء " بعد أن نطقتُ حروفي معه وبه، كان يام الغريب وهو يودع والدته ويسرق النظرات إلى قلب الطفلة ذات الجدائل أول الطريق!

قبل أن أحكي له كيف تسابقت الكلمات والحروف بعد أن رحل لتحكي عن سعادتي بوجوده وكم تمنى قلبي خلوده بقربه، كان قد جاء مودعاً دون موعد! وكأنه يُعلن عن نهاية الطريق قبل أن يبدأ! ورحل يام وراحت كلماتي تنهمر على الورق تحكي عنه، عن ابتسامته وهو يتفحص نور

التي ازداد طولها وعلا صوتها وتزاحمت كلماتها، وكيف عادت الكلمات التي تاهت من الطفلة الصغيرة، لتصافحه مودعه " هل ستعود مرة أخرى؟ أنت صديقي الأول، لماذا لا تبقى هنا؟ "

" لا أستطيع يا نور، لا يمكنني أن أترك أبي وحيداً، ولكن لن أنساكِ، ولن أنسى جمال صوتك اللطيف، أنتِ صديقتي للأبد "

" وهل سنلتقي مرة أخرى؟ أم أن هذا العهد الأخير! "

" سنلتقي يا نور، سنلتقي دائماً وأبداً "

رحتُ بعدها أكتب، أكتب المشاعر والانتظار، أكتب السلام والحروب، وأصبحت الكتب والأقلام أصدقائي وأسلحتي لمحاربة الوحدة، ولم أكن تلك الفتاة البعيدة، فتكوين الصداقات والاحتفال بسبب وبدونه كان أحب الأمور إلى قلبي، وكانت زوجة عمي تُلبي كل طلباتي دائماً، فعشتُ أميرة في قصر، حولها الجميع، من الكتب والبشر.

وفي عمر الثامنة عشر وبعد تخرجي من الثانوية بمعدل مرتفع، قرر عمي بأني سأدرس الطب، وبينما كنتُ أتحضّر للجامعة، كنتُ أتسلَى بنشر بعض من كتاباتي في أحد الصُحف، حيث أن عمي يعرف رئيس تحرير تلك الصحيفة، فكان لي عمود يومي باسمي!

نيسان ١٩٨٨، يوم من أيام تعز الممطرة، صوت عمي ينادي " نـــور، رسالة بريد اليكِ " أسكتُ صوت عبد الكريم عبد القادر، لأتأكد مما سمعته! قفزتُ من على سريري وبلحظة كنتُ أقف أمام عمي لأستلم الرسالة وأعود لغرفتي بنفس السرعة.

سمحتُ لعبد الكريم عبد القادر أن يُكمل

من قال .. يا عمري .. أقدر على النسيان
من قال .. في قلبي .. غيرك يعيش انسان

جرحي قديم .. في القلب باقي له أثر
ما يمحي .. مهما يطول عمر الدهر

فتحتُ الرسالة وكان أولها " مرحباً، الكاتبة المبدعة الجميلة، قد قرأتُ كل يوم أحرفك، ما كل هذا النـور! من أين لكِ كل هذا الرصف الجميل والثقافة الواسعة! هل أصبحت الكتب صديقتك! وأنستك صديقك الأول!

توقفتُ وأغمضتُ عيني، هل حقاً هذا صديقي! أم أنّي من فرط الانتظار بدأت أدخل في هلوسة الرسائل!

دنيا غريبة .. غريبة
دنياي أنا و دنياك..
دنيا عجيبة .. عجيبة
مكتوب علي فرقاك..
دنيا غريبة .. دنيا عجيبة
كل يوم لها أحوال .. أحوال

كان صوت عبد الكريم هو الحقيقة الواضحة هُنا! ابتسمتُ وعدتُ أُكمل رسالتي وأردد " دنيا غريبة .. دنيا غريبة "

" قد عدتُ يا صديقتي إلى صنعاء، أستمتع وأنا أقرأ كتاباتك، وأرى أنكِ قد أصبحتِ فتاة جميلة مثقفة، قد ترفض أن أبقى صديقاً لها! سآتي قريباً لزيارتك.

صديقك الأبدي يام. "

احتضنتُ الرسالة، وبدأتُ بالدوران حول الغرفة وكأن السعادة قد ملأت الستائر والأغطية وكل عطوري على الرفوف، وتداعت لها كتبي وبدأت كل الأشياء تدور منتشية، المطر وصوت عبد الحليم الذي اخترته رفيقاً في هذه اللحظة

جانا الهوى جانا ورمانا الهوى رمانا

ورمش الأسمراني شبكنا بالهوى

آه ما رمانا الهوى ونعسنا واللي شبكنا يخلصنا

دا حبيبي شغل بالي، يابا يابا شغل بالي

يا راميني بسحر عنيك الاتنين

ما تقوللي واخدني ورايح فين

على جرح جديد والا التنهيد

والا على الفرح موديني

أنا بسأل ليه واحتار كده ليه

بكرة الأيام حتوريني

خلينا كده على طول ماشيين

أمسكتُ بقلمي، بحثتُ عن ورقة رسائل، عطرتها، وقبل أن تتساقط حروفي على الورق كانت نبضات قلبي تُعيق ترتيبها! ولم أستطع كتابة شيء غير " مرحباً صديقي، أنا في انتظارك " في ورقة كبيرة بيضاء يملأها الفراغ وضياع المشاعر! ثم طلبتُ من عمي أن يُرسلها.

توقفت الخالة نور عن سرد حكايتها وهي منتشية وكأن الذكريات عادت للحياة ، كانت مبتسمة وخيالها سارح في السماء وغروب الشمس وهي تقود عائدة معي إلى المنزل، وتشدو مترنمة بهمس

عدينا يا شوق عدينا

على بر الهوى رسينا

دنا عمري معاك وهوايا هواك، عدينا يا شوق عدينا

فتحتُ الرسالة المعلقة بعد أن عدتُ من رحلة الخالة نور في ذكرياتها، كان آسر يُلقي السلام والغرام

" نـور، كان من العجيب أن اسمك هو أغلى أملاكي، حياتي السابقة والقادمة، روحي التي أعيش بها ومعها، كان اسمك هو اسم والدتي، لذا كنتِ ملفتة منذ الوهلة الأولى، رغم كرهي الشديد لمحبة والدتي لكِ بعد أن كنتُ مدللها الأول والوحيد، وتضاربت المشاعر بين كُره وانتظار، بين شوق وابتعاد، ووجدتُ أنكِ تصبحين مدللة منزلنا وأن هذا الآسر المأسور أمامك، مُشتري بماء العين لحظة وصال، وأبدية لقاء "

كانت بساطة مشاعر آسر وسهولة رصفه للكلمات تصف الصدق في طلبه اجتماعنا تحت السقف ذاته ومشاركة العمر معي!

تركتُ رسالته وحيدة دون رد، وسرقني النُعاس من التفكير، حلمتُ يومها أنّي أعيش في منزل الخالة نور في الثمانينات وأنّي رأيتُ أبي هُناك وهو يقف على قدميه دون عكاز!

وما أن حلّ مساء اليوم الثاني حتى اتصلتُ على الخالة نور أطلب قدومها لمنزلنا، حيثُ أنّي لا أستطيع الذهاب إليها، وطلبتُ من أبي مقابلة آسر في أي مكان ومناقشة أمر الزواج حيثُ أبديتُ موافقة مبدئية بشأنه، جهزتُ بعض الكعك والحلا الغريب الذي أعددته لأول مرة من أجل أن نتناوله في رحلة ذكريات الخالة نور القادمة.

" وكأن جميع الأمنيات التي تطوف في فضاء هذا العالم قد تحققت في لحظة وصول صديقي الأول، يقف حاملاً حقيبته، يجول بعينيه في ملامحي دون توقف! لم يزدد طوله كثيراً ولم تختلف ملامحه، الفتى الأسمر متوسط الطول بعينيه الضيقتين وابتسامته المبهجة وشعره الكثيف الغير مرتب، ملابسه تتداخل ألوانها بشكل غريب، لا يمكن لأحد أن يراه ولا يطيل النظر، كان

ملفت غريب، يجعل كل من يراه يتمنى أن يبقى معه، صوت ضحكته لا تشبه أي شيء ولا يمكن مقارنتها بشيء، حيث يمكن للأشياء أن تُنسب إليها وتبقى هي متفردة "

ارتشفتُ من الشاي الموضوع أمامي وسألتها متعجبة " أيُعقل أن هذا يام! أبي! "

ضحكت وأجابتني " هكذا كنتُ أراه! ولا أعلم كيف كان يبدو حقيقةً! "

أكملت " مشيتُ ببطء أستقبله، مدَّ يده مصافحاً، " مرحباً نور " لم أنبس بحرف وصافحته وسحبتُ يدي بسرعة، طلب عمي من الجميع الدخول، وبدأ يام يحكي عن رحلته الطويلة من صنعاء وعن اشتياقه لتعز وبأنه لم يستطع نسيانها منذ المرة الأخيرة، وبينما يام يتحدث ذهبتُ بسرعة لأطلب من العاملة في المنزل تحضير سفرة الطعام لتناول الغداء وعدتُ وأنا أُهرول كي لا تضيع منّي أي كلمة سيقولها يام! كنتُ في الثامنة عشر من عمري، ولكن لم أرتدِ أي حجاب، بل كان وشاحاً شفافاً وضعته على رأسي حيثُ كُنا في ذلك الوقت لا نتهم بحجابنا أمام الأقارب، في المساء كنتُ مع يام في حديقة المنزل أستمع لحكاياته عن غربته والحياة المختلفة وعن عودته لصنعاء، عن الرسم والألوان وعن باريس التي جاب شوارعها مع والده بحثاً عن الفن وكيف تعلم في معهد الفنون هناك، كانت الحكايات ممتعة وأنا أستمع إليها، ولولا ارهاق يام من السفر لبقيتُ أستمع إليه لأيام متتالية دون نوم ولا راحة!

يسألني في نهاية كل قصة " ألستُ مملاً؟ لستُ ثرثاراً ولا أدري لماذا أواصل في سرد الحكايات لكِ؟ "

أجيبه مبتسمة " على العكس، أنا أستمتع بقصصك وأحب سماعك "

يضحك وهو يقول " اذاً لن أتوقف عن الكلام ولكن أريد أن أستمع اليكِ، فأنا لم أسمع صوتك بما فيه الكفاية، أنتِ طوال الوقت مبتسمة وتضحكين فقط "

" لستُ أملك الكثير من القصص، ولكن سأحكي لك في المرات القادمة "

وبعد أن تغرب الشمس كل يوم، كُنا نكمل أحاديثنا برسائل ورقية أُرسلها له عبر شباك غرفتي، فيلتقطها ويقرأها في الملحق الذي يبقى فيه، ويعود لكتابة أخرى وأقوم بسحبها بخيط لغرفتي، وهكذا نبقى حتى ساعات الفجر الأولى "

ضحكتُ على كلام الخالة نور " وهكذا كانت رسائل الغرام؟ "
ابتسمت " لا، بل كان كله كلام " وأكملت
" بقيَّ يام قرابة الشهر في منزلنا، نتناول كل وجباتنا سوياً، نشاهد التلفاز مع عمي و وأم يام، نُكمل كلامنا الذي لا ينتهي، أحكي له عن أحلامي ورغبتي بدراسة الطب وأن أُصبح الطبيبة الكاتبة، ويحكي لي كم أن الرسم والألوان تُشكل حياته ورغبته في أن يُصبح أحد أشهر الفنانين، وهكذا تكبر الأحلام ويطول الكلام "
سألتُها " وكيف انتهى الكلام؟ "
" حتى جاء ذلك اليوم الذي تقدم فيه لخطبتي أحد جيراننا، كُنا نقف أنا ويام نستمع من خلف الباب حوار عمي وأمه!
كنتُ متفاجئة ولا أرغب في الزواج بعد، خائفة من قرار عمي وما سيؤول إليه، يومها عمَّ الصمت سفرة الطعام، واستمر صمتنا في غرفة الجلوس، طلبت مني زوجة عمي فجأة ان أذهب معها للغرفة المجاورة
" نور، أصبحتِ شابة جميلة، وها هم الخطاب يطرقون بابنا، تشاركنا أنا وعمك الأفكار في العريس ورأينا أنه شاب خلوق لا ينقصه شيء، ورأينا أن نأخذ رأيك فإن كنتِ موافقة، سنبحث في الأمر أكثر، وإن كنتِ غير مستعدة لأمر كهذا فالأمر عائد لكِ "
فرأيتُ وقتها ألّا أُطيل الأمر أكثر وأن الرفض أسهل " في الحقيقة لستُ مستعدة ولا أريد التفكير في الأمر "
تقبلت زوجة عمي الأمر، ووقتها فقط عادت لي أنفاسي، في تلك الليلة أرسل لي يام يسألني عمَّا تحدثنا عنه أنا ووالدته بشأن العريس، أجبته بأني قمتُ برفضه، أرسل بعدها يُعاتبني على تسرعي وأن قراري قد يكون خاطئ وكان يجب أن أُفكر أكثر!
حينها توقفتُ عن ارسال الرسائل، وبقيت أفكر! كيف يمكنه أن يقول كل هذا! ماذا عن رسائل الشوق التي تصلني كل ليلة! ماذا كان يقصد بها! هل كنتُ مغفلة مراهقة فهمت كل شيء بشكل جنوني!

وجالت التساؤلات طوال الليل، حتى بزغ الفجر، بعدها استسلمتُ للنوم، في الصباح وعلى طاولة الطعام تحدثتُ إلى أم يام " أمي، أريدُ اخبارك أمراً بشأن قراري في الأمس "
قاطع كلامي يام
" بل أنا يا أمي من أُريد اخبارك بأمر مهم، في الأمس وصلتني رسالة من أبي يخبرني بأنه تم قبولي كرسام في أحد الصحف "
التفت إليه الجميع، فرح له عمي بهذا الخبر، وتقبلت والدته الأمر ببرود كعادتها، أما أنا لم أفهم من سبب ذكره لهذا الأمر!
صعدتُ لغرفتي بعدها وأنا أفكر فيما قاله يام، حتى تعثرتُ بشريط أمام غرفتي!
شغلته في مسجلتي وجاءني صوت سميرة سعيد ولأول مرة أسمع أغنيتها

يـا اللـي أديـت لحياتـي فحبـك طعـم ولـون
مـش حتنـازل عنـك أبـداً مهما يكـون
مـش حتنـازل عنـك أبـداً مـش حتنـازل عنـك أبـداً
مـش حتنـازل عنـك أبـداً مهما يكـون
حتى إن كـانت كلمـه اتقالـت مـن ورا قلبي و جرحـت قلـب
ننسـى زعلها ومـين كـان قالها ده أحنـا اثنين بـالروح بنـحب
أبـداً أبـداً
ده أحنـا البعـض حنفضـل دايمـا
طول العمر حنفضل ديما مهما يكون
أبـداً أبـداً

انا حبيتك لما لقيتك قدام عيني حلم بعيد
تنسى عنيا صعبة عليا وبعد شوية بقى في الايد

أبـداً أبـداً
مين يختار يخرج من الجنة
ليه بأدينا نهد املنا
ونعيش نندم على اللي جرانا
مهما يكون ... مهما يكون ... مهما يكون

لم أُصدق ما سمعته، بل لم أفهمه! ماذا يقصد يام منها! كنتُ رغم التوهان سعيدة ولا أعرف لماذا! سمعت بعدها صوت حجرة صغيرة تدق على شباكي، كان يام يقف في الأسفل ويشير لي بأن أنزل لأقابله في الحديقة!

وما إن وصلتُ إليه، ناولني ورقة صغيرة، فتحتها، كانت " أحبك "

لم ألتفت له، بقيتُ أنظر للورقة وأقرأ حروف الكلمة مرة بعد الأخرى

" أ حـ بـ ـك" فاضت عيناي، واغتسلت بسعادة الأرض نبضات قلبي، شعرتُ بأن العالم من حولي يصغر ويُختزل في أربعة أحرف!

وكأنني لم أعرف سعادة قبلها، ضاقت الأرض اتساعاً لهذا الشعور، سافرتُ للقمر، وخاطبتُ النجوم، أحكي لها عن الفرح، عن امتلاك الكون!

كان يام ينظر لي وأكمل رسالته بحديث مطول عن كيف يتحدث لعمي ويتقدم لخطبتي وعن تحديد موعد الخطبة، واتصاله لوالده والعديد من الخطط ولا يمكنني التركيز مع ما يقوله

" نـور أرجوكِ توقفي عن البكاء واسراف كل هذه الدموع! منذ اللحظة لن أسمح لدموعكِ بالسقوط "

التفت إليه مبتسمة ورأيتُ دمعة هاربة نزلت من عينيه فسألته " ماذا عن ماء عينيك ! "

" إنها دمعة هاربة وسنعيدها مكبلة بالسلاسل الآن "كان يضحك وهو يتحدث عن دمعته الغريبة!

" ولكن ألن تجيبي ؟ "

" عن ماذا! "

" ألم يخبرك أحد من قبل أن أحبك سؤالاً! "

ضحكت " حقاً! هل هي كذلك! "

" بالطبع، وسأنتظر اجابتك "

في مساء ذلك اليوم، اجتمع يام مع والدته وعمي لخبرهم بطلبه، واجتمعتُ أنا بأوراقي أدلو لها باعترافاتي وأرسلتها مع منتصف الليل للعاشق المنتظر تحت ضوء القمر

" تكاتف الكون ليحمل ذاك الشعور، ما لا يمكن سوى السفر معه إلى عالم التحليق في منزل الفرح البعيد وذرات السعادة المتساقطة من سماء الهيام، ووضعهُ بين أضلعي نبضاً لا يهدأ!

سافر الشعور في اللّاحدود ليصل في اللّاثواني إلى موطنه ويصبح مقيماً لا يعرف غير الأبدية.

في أيام من العمر، كانت العمر، تُهتُ مع الشعور بِهذا الدخيل على الروح، وحلّقتُ بهدايا الحب معه، وقفزت من فوق السحاب ليلتقطني فرح السنين!

أتدري يا وليَّ القلب، لم أدري قبلها ما أنت وما تلك النبضة حتى سمعتها حرفاً حرفاً حرفاً حرفاً.

غيرت الأرض مسارها وتساقطت شهباً من مكان سحيق وخَفت ضوء القمر ليهدأ الكون، وسقطت دمعة أعادة ترتيبه، وأقامت ضجة بداخلي فقط!

ماذا إن توقف هذا المجنون الذي ينبض! تدفقت شلالات عيني مع أحرفك، ليتك تسكت، علّني أُرتب الفوضى ويعود عقلي.

كلماتك اطمئنان وسط عاصفة جنون، لطالما كُنتَ تحمل الأمان وتسكن الروح بين يديك.

كان عُمراً جديداً ما قبله وهماً، كيف يمكن لكلمة واحدة منك بأحرف تائهة أن تكون السكون والسكن! ويُصبح قلبي معك مملوكاً وملك، يا ويلتي ضاع عقلي، أيملك طبيباً لي علاجاً، أتُراه يعود بعد أن تاه في مجراتِ حُب! كم هو مجنون بك الغرام وكم مِن حياة هِيَ كلمة "أحبك"

المحطّة السادسة

غيمة

صنعاء الخامس من أيار ٢٠١٥ يقف آسر بطوله الفارع مرتدياً بدلة سوداء بقميص أبيض وربطة عنق ذهبية، وجواره نور تقف خجولة مرتدية فستاناً ذهبياً جميلاً، تبدو جميلة أنيقة ولطيفة كعادتها، صديقاتها يُحدقن بها ويضحكن بهمس، القليل من الأصدقاء والجيران في حفلة العقد التي نسقتها بكل سعادتي، قدمتُ خواتم الخطبة للعروسين ألبسها آسر الخاتم، كانت يدها ترتجف وتتعالى صوت الزغاريد وتتعالى الفرحة في قلبي وتعود بي الذاكرة لصوت مطر نيسان المختلط بصوت الزغاريد في منزل عمي ويام يقف ممسكاً بباقة ورد أبيض أهداها لي وأنا أرتدي فستاناً زهرياً منفوخ الكتفين أمد يدي مرتجفة وأشعر برعشة برد تسري في جسدي وأمسكتُ أخيراً بباقة الورد وأمسك يام بمفاتيح قلبي وسلب عقلي فتتابعت الليالي وأنا أنتظر كل يوم اتصال يام من صنعاء وهو يحكي عن أيامه وأعماله وعن الشوق والانتظار ليوم يجمعنا فيه القدر للأبد!

" أأخبرك سراً؟ "

كان السؤال الذي يسبق أحد اعترافات يام

أجيبه بنشوة " أخبرني "

" اشتقتُ اليكِ بحجم السماء "

بعدها لا تتسع السماء لصوت ضحكات القلب ونبضاته تدق فرحاً، يضع سماعة الهاتف بقرب مسجلته لأستمع، فيأتيني صوت راغب علامة، ذلك الشاب الذي تنتشر أغانيه

ياريت فيي خبيها وما خلي حدا يحاكيها

بسقيها دموع عيني وقدملها قلبي بايدي

وباخد من عمري وبعطيها بعطيها بعطيها

ياريت بعرف شو بحبها وشو عم بتعذب بحبها

يا قلبي روح جبلي قلبها راح دوب وأنا فكر فيها
كنتُ أضحك مع الصوت الجميل والكلمات البسيطة التي تنشر الفرح، وأنتظر موعد يام ووعده بأن يعود إلى تعز بعد شهر لزيارتنا!
ساعة، دقيقة، ثانية كان يمر الشهر، لم تُساعد اتصالات يام وكلمات الغرام بأن تسمح للشهر أن يُسرع في مروره الكريم، وجاء يام وحضرت معه الأفراح وسكنت الأشواق وهدأت الأشجان، وزاد الجنون حتى خُيل لي بأن الحياة لن تمضي إن اختفى يام يوماً!
ثلاث أيام وأنا أراه أمامي ولا أصدق إنه هُنا!
يام الذي لم أعرف قبله صديقاً ولا حباً، كان من الصعب تخيل فقدانه! في لحظة شعرتُ بأن الأرض ستميل بي، خرجتُ من غرفتي مسرعة إلى الملحق حيثُ يبقى يام، طرقتُ بابه، خرج يام مذعوراً " هل حدث شيء؟ "
" لا لم يحدث، ولكن أُريد أن أسألك "
وكان يام ينتقي اجابته في كل مرة فتارة يجيبني " نعم، يا حياتي " وتارة " نعم عمري " وتارة " نعم حبيبتي "
ولكنه أجاب لأول مرة
" نعم عشقي "
عندها ارتبكت كل جوارحي وفرت دمعة من عيني، وأسرعتُ جرياً لأعود من حيث أتيت ونمتُ يومها هانئة، وكأن طمأنينة الأرض كلها قد سكنت بداخلي
في اليوم التالي، أجلس أنا على أعلى السلم في منزلنا، اقترب يام وجلس بجواري وسألني " ماذا كان سؤالك في الأمس؟ "
"كنتُ أتساءل إن تتركني يوماً وحدي؟"
" ولكن لم أفكر من قبل بهذا! "
أجبته وأنا مترددة " ولكن ماذا إن حدث وأردت الابتعاد! ماذا إن قررت الانسحاب! "
أجاب بعصبية غريبة " قلتُ لك لم أفكر بهذا ولا أريد التفكير به "

أكملتُ حديثي متعجبة من ردة فعله " أردتُ فقط سؤالك عن الأمر، فقد أصبحتُ أرى الدنيا بك ومعك ولا قدرة لي على تحمل فقدانك "

هدأ قليلاً " وماذا إن حدث! وأحسست برغبة في الانسحاب والابتعاد! "

أجبته بثقة " فليكن هذا بأسرع وقت، سيكون عليك فقط اخباري لا تجاهلي "

قلتُ كلماتي بعناد لأثبت له أني لستُ ضعيفة إنما أنا أحبه فقط ولا أعرف كيف اشتعل الحوار بيننا

سكت قليلاً وكأنه يُفكر ووقف فجأة ودون أن ينظر لي " إذاً فأنا أنسحب! "

ضحكت بتعجب " لا يعني أنني أخبرك بذلك أن تجربه الان! "

أجاب بعناد " بل أنا أعني هذا، لا طاقة لي بتحمل مسؤولية مشاعرك! "

وقفت أحدثه وأنا لا أفهم كلمة " هل تمزح معي الان! "

" بل أنا جاد، أشعر بأن الوقت سيمر وسيكبر تعلقك وأنا لا طاقة لي بهذا! "

أردتُ سؤاله عن الكثير ولكن من هول الصدمة سألته " هل أنت متأكد مما تقوله؟ "

أجابني بعناد أكبر " أجل أنا متأكد وسأرحل الآن، سأغادر إلى صنعاء " وأمسك بيده وقبل إن يخلع خاتمه، سبقته بهذا

ووضعت خاتمي بيده وأنا أتلعثم " إ...إن كـ..كان هـ...هذا ماتريده، و وأنا لا لا أفهم شيئاً م م ما يحدث و ولكن فليكن ما ما تريده إذاً "

نزل السلم مسرعاً وأمسكتُ أنا على فمي من هول الصدمة ولم تتحمل قدماي مصيبتي فسقطتُ على الأرض وكانت السماوات تتساقط حولي وتتحول رُكاماً وأرفع رأسي فلا أرى سقفاً! أتيه أنا في الفضاء كذرة دون روح أو كتلة، نظرتُ إلى يدي ممسكة بيدي الأخرى على فوهة البركان، أمسك بها على فمي، أتأمل يدي هل اختفت! أم أن الدمع العالق في مقلتي يمنع رؤيتي نزلت دمعة حارقة على يدي فرأيتها تحترق! أردتُ إطفاءها بملابسي وأنا أرتجف فبدأتُ أحترق وأتطاير رماداً ويشتعل كل ما حولي وأسمع صرخة بداخلي لا تسكت

وسكن الكون بعدها ورحتُ أجر قدمي إلى سريري أتدثر به وأرتجف برداً وأنا أشتعل، وأطفأتُ حريقي بلحافي ولم تجف دمعتي لساعاتٍ طوال

واقترب عمي مني يسألني بخوف وترقب عمَّا حدث فأجبته وأنا أبكي بحرقة " قررتُ أنا الانفصال عنه، أنا من قررتُ هذا "

" وما سبب قرارك هذا؟ هل أزعجك بشيء "

" أجل، أخبرني إن دراسة الطب صعبة ولن يسمح لي بدراسته بعد الزواج وأنا أريد الدراسة يا أبي أرجوك، قل له أن يرحل حالاً ولا أُريد رؤيته " خرج عمي غاضباً وسمعته يصرخ بوجه يام وأنا أبكي بحرقه

" أخبرتك منذ البداية أن نور ستكمل دارستها فيما تُحب والان وقد بدأت بشروطك الغريبة نور لا تُريد رؤيتك، فلا تعود إلى هنا "

أجابه يام بكل هدوء " وهو كذلك، لن أعود إلى هنا "

ورحل يام، دون وداع، دون أعذار أو اعتذار

أخرجتُ يومها ذلك الورق الذي كنتُ أحلم بتحويله لكتاب فأهديه ليام في عيد ميلاده وقد أسميته " أأخبرك سراً؟ "

كانت رسائلي له، أكتبها بكل الجنون والحب!

وكتبتُ الرسالة الأخيرة وقد جف دمعي وبقيَّ الحبر

أفقتُ من سبات غيبوبتي الطويلة في عشقك، ورأيتك أمامي، أغمضتُ قلبي ورأيتك بعينيّ، ولم أتعرف عليك!

تتحدث بلغة لا أفهمها وتهرب مني الحروف ولا أجيب، سقطت أول دمعة، أخبرتني بحرقتها أنني لا أحلم، ارتجفت يدي، شددتُ عليها بالأخرى، وأيقنتُ أنَي لا أستطيع الهرب إليك هذه المرة، ولا يمكن الاختباء بك منك!

عن أيّ وداع تتحدث! لم يخطر على قلبي معك غير الأبدية! أكنت تُحاول إعادة إيماني بالقدر!

وتخبرني دون أسباب ودوافع أن شمعة غرامنا انطفأت! أيُّ جريمة هذه تقوم بارتكابها! وأين آخذ بحق إحساسي وقد كنتَ الحاكم والقاضي والمحامي وفؤادك محكمتي ومملكتي؟

أيُّ تهجير تحكم به على عمري! وأين المنفى يا وطني؟

ما هو الوداع ! أتُفارق الروح ذراتها! وماذا الان، ستفنى روحي! أم أنها تُصبح شظايا! ولا أعرف كيف أجمعها؟

تاهت الحروف، أناديك دون صوت، يا روح العمر تمهل، لا تعدم الروح، يا حاكم الفؤاد ما تُهمتي! أتقتل بريئاً؟ وتطفئ نبضات قلبه!

رحلت ولم تلتفت، دون سبق إصرار أو ترصد، وأصبحتُ أنا شتاتاً!

وكُسِرتُ كما لو أنني نافذة هشة كسرتها ريح هادئة لا إعصار فيها! كما لو أنني منزلٌ من قش سقط قبل أن يبدأ الزلزال، كما لو أنني أضعف مخلوق على وجه البرية!

انتظر، أين صوتي، كيف أسكته؟ أين عمري، كيف سرقته؟

كيف تسحب بساط الأحلام الذي وضعتني عليه وتتركني أسقط في هذا الفضاء من أعلى سماء!

أكملتُ رسالتي ووضعتها مع أخواتها وأنا أهجو نفسي كيف أضعتها بين حبر وورق، ووقعت عيني على أحد أشرطة طلال مدّاح في درجي، أشغلته لتهدأ روحي قليلاً وأغمضتُ عيني، وانتقل صوت طلال من لحن إلى لحن حتى غنّى

انتهينا وجفت الدمعة الحزينة الحزينة
انتهينا وتغربت بالعناد امانينا امانينا
انتهينا وطوينا جرح ليالينا ليالينا
انتهينا قبل من نقول ابتدينا انتهينا
وخلصت القصة ولسا ايه بعد اللي جاني
كفاني!

وعدتُ معه لنوبة البكاء، كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، أقفلت المسجلة، توضأتُ وقمتُ أصلي وأدعو الله، أسأله فقط النسيان ولا شيء غيره!

وأقف هنا اليوم وقد تركتُ القصة الحزينة في ذلك الزمن ولم آخذ منها وجعاً في رحلتي، وأخذتُ من يام ابنته الجميلة أضمها لأسرتي الصغيرة.

وبعد مرور شهر على حفلتنا الجميلة، كُنا أنا ونور قد بدأنا بتجهيزات العرس، كانت نور تُشع في كل مرة تتحدث بها عن آسر، حتى جاء ذلك اليوم الذي سألتني به " خالتي، كيف افترقت بكم الطُرق أنتِ وأبي! "

كُنا نتسوق في أحد مراكز صنعاء الواسعة

حاولت أن أتجنب الإجابة خوفاً على نور أن تعود لما كانت عليه من الخوف " فرقنا القدر "

" وماذا كإن ذلك القدر! "

" اختلفنا يا ابنتي، أردتُ اكمال دراستي في كلية الطب وأراد يام أن أختار تخصص غيره "

وكانت تلك المرة الثالثة التي أكذب بشأن هذه القصة

ضحكت نور في استنكار " هذا هو يام، أقصد أبي، أراد الكون يسير بطريقته هو فقط "

" يا ابنتي هكذا حكم النصيب، وكنتُ أنا فتاة صغيرة شديدة العناد، لا ذنب لوالدك في هذا "

على الأب أن يبقى في مكانة عالية في قلب ابنته، فحافظتُ على يام من السقوط عند نور.

عادت نور تسأل مجدداً وأنا أقود في طريق عودتنا للمنزل " وكيف أكملتِ طريقك بعده "

كان سؤال نور يخالطه صوت عبادي الجوهر مع غروب الشمس

تدرين وأدري بنفترق

تدرين قلبي بيحترق

حنا اتفقنا في كل شي الا الزمن

عيا الزمن لا نتفق

ولا تزعلي لو نفترق

قلبك خلي

وقلبي أنا اللي بيحترق

انتظرتُ لعبادي يكمل وصلته الأولى وبعد تنهيدة أجبتها " لا تتوقف الرحلة أبداً لأن أحد المحطات تعطلت يا ابنتي "

وأكملتُ حديثي " لستُ قطاراً ولا يام سكتي الحديدية، أنا أطير، ولا أخضع لقوانين الأرض "

" وكيف كان تحليقك؟ "

" قرر عمي الانتقال إلى صنعاء وشراء منزل، كان مختلفاً عن منزلنا في تعز، ثلاث طوابق، نعيش في الطابق الأول وقام عمي بتأجير البقية "

" وبهذا بدأ طريق الحلم؟ "

" أيلول ١٩٨٩ بدأتُ رحلة مختلفة في كلية الطب، عشقتُ الطريق الجديد، والدراسة في هذا المجال، وتفوقتُ فيه حتى أكملتُ العام الأول بتقدير عالي، وكانت هدية عمي بأن علمني قيادة السيارة وأخرج رخصة قيادة لي "

" ولم يظهر يام أبداً؟ "

" أبداً، وكان بُعده مساحة نسيان "

" وهل تلاشى في ذاكرتك ولم يذكره قلبك؟ "

" لم يُخلق الحب ليُنسى، إنما يُوضع بعض الحب في صندوق مُغلق، في أحد غُرف القلب المهجورة، ولا يزوره الحنين، ولا تجده الذكريات "

" وكيف صارت نـور الشمعة التي كادت الريح اطفاءها إلى شمس؟ "

ضحكتُ لكلامها "كانت السِّكة طويلة والليالي تشتد عتمة والأماني تقصر، حتى صرتُ شمساً " وأتممتُ كلامي "كنتُ أقف كل يوم أمام مرآتي وأحدث نفسي وأسألها، ألستُ كافية ليبقى معي يام؟ ألا أستحق من الحب الكثير؟ هل استكثرت الحياة بقاء يام وبعض السعادة؟ تسقط دموعي بعد أن يطول الحديث وأغسلها بعد ذلك بالصلاة وأعود لحياتي، وبعد أن انتهى العام

الدراسي، كان لدي الكثير من الأصدقاء وأبحث دوماً عن أشخاص جدد أتعرف عليهم، وأُجبر أمي أن تتعرف عليهم، لا أحب أن أبقى وحيدة، حتى جاء اليوم الذي غادر النور فيه!

في منتصف ليلة صيفية ممطرة، من أشد ليالي صنعاء ظُلمة، يتنافس فيها صوت الرعد وقطرات المطر في الشِدة، وتظهر لمعة البرق وسط الظلام كأداة حادة قد تضرب أي قلب ضعيف!

فبدأت بقلب عمي وانتهت بإطفاء النور بقلبي، كان عمي يستلقي على الفراش فاتحاً عينيه ولا يتحرك، تهزه زوجته وأردد أنا بيأس " أبي أرجوك، أرجوك تحرك، أرجوك أجبني، أرجوك "

بدأت بالجري نحو الهاتف واتصلت بصديقه الطبيب ليأتي ويراه، جاء صديقه بسرعة ولكن لا ليعالجه، جاء ليعلن وفاته.

وغيم الصمت، ولا أجد للشعور مكاناً، أبحث عن دموعي فلا أجدها، يملأ الظلام كل أركاني، تبكي أمي وبعض أقاربنا، تقترب مني احداهن وتهزني كي أفيق " نور، نور، لا يجب أن تبقي في صمت، نور يمكنك البكاء ولكن لا تسكتي، نور عمك مات قاموا بدفنه قبل قليل " عندها فقط انفجرتُ بالبكاء وبدأت الصراخ " أحقاً دفنوه ولن يعود! لن أراه ثانية! سأُكمل حياتي دونه! على ماذا سأعيش؟ لأجل ماذا؟ على من أتكئ؟ أأعيش بلا سقف ولا عمود؟ هل سأزحف على الأرض؟ "

جاءني صوت امرأة عجوز وهي تقول " سيخلق الله لكِ أجنحة يا ابنتي لا تخافي "

أسكتتني بكلامها، وصرتُ كل يوم أتحسس أجنحتي وأتساءل متى ستكبر وأبدأ بالتحليق مبتعدة عن الأرض!

أجلس بجوار أمي بعد أسبوع من العزاء، سألتها " ألن يأتي حتى للعزاء؟ "

" أتقصدين يام؟ يام سافر مع والده "

" لدولة أوربية أيضاً؟ "

" لا، أخبرني أنه ذاهب للسعودية، فقد وجدوا فرصة عمل جيدة هناك"

" جيد "

" أُفكر أن أذهب لهناك أيضاً "

" ماذا؟ وأنا "

" سأعود لمنزل أبي، لا يصح أن تبقى أرملة وفتاة لوحدهن "

" ولكن أنا أريد أن أكمل دراستي هنا "

" ومن قال بأنك ستذهبين لأي مكان، ستبقين هُنا في صنعاء، منزل خالتك موجود "

" ولماذا أبقى في منزل خالتي! لأبقى هنا في منزلي! "

" أعتذر منك يا نـور ولكن هذا منزلي، قد كتبه باسمي عمك المتوفي وكتب كل أملاكه باسمي" أصابني الذهول ولم أفهم كلمة مما تقوله!

" ولكن يا أمي لا أفهم شيئاً؟ "

" أنا لستُ أمك، صحيح أنّي قمتُ مشكورة بتربيتك ولكن أنا أُريد العودة لمنزل أبي في السعودية وآخذ كل أملاكي وأنتِ يمكنك العيش في منزل خالتك هُنا واكمال دراستك "

" أتعنين أنّي لا أملك أي شيء الآن! لا أهل ولا مال "

" خالتك من واجبها الاعتناء بكِ أيضاً، أما أنا فقمتُ بما يكفي لسنين طويلة! "

" اعتناءك بي كان بأموال ورعاية عمي، أما الآن فسأكون متطفلة في بيت خالتي! ثم أيُعقل أن عمي لم يترك شيئاً لي! "

" أنا لا أكذب كل الأوراق والمستندات تثبت ذلك، يمكنك التحقق منها "

" إذاً فقد اعتقد بأنك ستهتمين بي كطفلتك! كما اعتقدت بأنكِ أمي، ولكن أنتِ تركتِ طفلك الحقيقي من السهل عليكِ الآن تركي بالتأكيد "

" لا أهتم بما ستقولينه الآن، كل ما يعنيني أن تذهبِ لمنزل خالتك وسأبقى أنا هُنا حتى اكتمال فترة العدة وأرحل "

" كم أنتِ جيدة في الاستغناء "

" عن ماذا؟ "

" عن الرحمة "

" فليكن "

اتصلتُ بعدها لخالتي أُخبرها بما حدث كانت تشتم أم يام وأُحاول ايقافها عن هذا فهي الأم التي ربتني رغم أي شيء وكل شيء، طلبت مني خالتي أن أحزم حقائبي وأنتقل إلى منزلها في الحال وهكذا فعلت.

" تركتك جدتي ورحلت هكذا دون أن تترك لكِ شيئاً "

" تركت طفلها من قبل لأنها تعبت من أسلوب حياة والده دون أن تشعر بأي شوق له! "

" مثلما تركتني أمي الآن! أهكذا تكون الأم؟ "

" هكذا بدت لي وقتها "

" وكيف كان منزل خالتك؟ "

" منزل بطابقين، أبقى أنا في غرفة في الطابق الثاني مع وجود غرفة أخرى للزيارة تخص بنات خالتي المتزوجات وغرفة خالتي، بينما يبقى في الطابق الأول ابن خالتي وابن عمه الذي يتبنى تعليمه زوجها، كانت الليالي الأولى طويلة، أُحارب فيها طيف عمي واشتياقي لسماع صوته وأتذكر بعدها زوجته وكيف كنت أمانة عمي وتركتني، ولا يغفُ جفني حتى يدركه التعب، فأجد نفسي قد استيقظتُ لمحاربة دقائق اليوم التالي، وبعد مرور أسبوع لا أُحدث فيه أحد، بدأت بارتداء قميص صلاتي لأتجول في المنزل وأُساعد خالتي في أعمال المنزل وأخرج لحديقة المنزل وقت الغروب أبقى أُراقب الشمس واشتعال السماء بلون غروبها .

" هل يمكنني مشاركتك مراقبة الشمس "

رفعتُ رأسي لأنظر لصاحب الجملة، كان شاب فارع الطول يبدو أنه قد تجاوز منتصف العشرينات، شعره ناعم كثيف، عيناه ضيقه يبتسم بشكل خفيف، ملامحه حادة وصوته رجولي له هيبة، أجبته بخجل شديد " بالطبع تفضل "

جلس واضعاً مسافة كبيرة بيننا وسألني " هل يمكننا التحدث أم أنك تُفضلين الصمت؟ "

" يبدو أنه لا مفر إلى الصمت، سأجرب الكلام إن كان قد يُحدث فرقاً! "

" أنا عبد العزيز، أعيش هنا في منزل عمي لأكمل دراستي وأنتِ؟ "

" أنا نـور، ويبدو أنك تعرف قصتي مسبقاً "

" وعن ماذا كانت نـور تسأل الشمس؟ "
" أسألها عن الغد كيف سيكون "
" وماذا يقلقك في الغد "
" تعليمي "
" ستكملين تعليمك بإذن الله وتصبحين طبيبة عظيمة "
" وكيف عرفت أنّي أدرس الطب؟ "
" لأنّي أدرس الطب أيضاً، أنا في السنة الأخيرة ورأيتك كثيراً في الكلية وكنت أعرف من تكونين "
" حقاً، ولكن لماذا.. " قاطع جملتي
"لماذا لم أُلقي السلام عليكِ يوماً "
" أجل، لماذا؟ "
" معرفة أن هناك أحد من الأقارب في نفس الكلية قد تكون مزعجة لكِ، وأنا لم أُرد إزعاجكِ "
" ولكن الآن وقد عرفتُ من تكون ستساعدني بالتأكيد؟ "
" بالطبع، يمكنك سؤالي عن أي شيء، واقتربتُ منك اليوم لأطلب منكِ شيئاً "
" تفضل "
" أطلبُ منك عدم التردد في سؤالي أي شيء لا فيما يخص الدراسة فقط، بل طوال بقاءك في هذا المنزل سأكون هُنا دوماً لمساعدتكِ في أي أمر كان، وأنا أعني كلامي هذا "
أجبت وقد علت وجهي ابتسامة " شُكراً لك، بالطبع سأفعل "
وقف بعدها مبتسماً وقد كبرت ابتسامته وظهرت أسنانه أخيراً، وقد أغمض عينيه متجنباً بقايا أشعة الشمس وكأن الشمس قد أهدت عينيه عسلاً من لونها الأخير، ثم قال مودعاً " إذاً فهذا وعدٌ مني بأن أبقى إلى جانبك متى ما احتجتِ شيئاً، سأذهب الآن وأتركك تكملين حوارك مع السماء وشمسها الراحلة "

رحل عنّي وأنا أبتسم لكلامه في تهكم، وأسأل الشمس " ماذا يا شمسي؟ هل هو ندبة جديدة! ووعود كاذبة وخيبة أمل أُخرى؟ "

وثبتُ من مكاني وأنا أُردد " لا، لن أُصدق أحد بعد الآن "

أوقفتُ السيارة ونـور ترفض النزول تُريد اكمال القصة، كم هيَّ طفولية وجميلة نـور، طلبتُ منها أن تدخل للمنزل وتُغير ملابسها وبعد صلاة العشاء تأتي لمنزلي لتناول العشاء وسأقوم بطرد آسر من المنزل لأجلها فلا تشعر بالحرج، ودخلتُ أنا للمنزل وآسر جالس في صالون المنزل ممسكاً بهاتفه وما إن وصلت سألني "كيف كان التسوق اليوم؟ "

" جيد جداً، اشترينا العديد من الأشياء، كيف كان عملك؟ "

"كالعادة لا شيء جديد، ولكن أتدرين يا أمي، أنا من القلة المحظوظة بحصولي على عمل جيد كهذا بعد تخرجي مباشرة "

ضحكتُ لكلامه " بل هذا بفضل الدعوات التي أُرسلها لله كل يوم "

احتضنني وهو يضحك " بالطبع، فأنتِ أجمل وأعظم أم ودعائك دائماً وأبداً مستجاب "

" متى كانت آخر مرة التقيت فيها بصديقك أيمن؟ "

" في الأمس، لماذا هذا السؤال؟ "

" يبدو أنك ستلتقيه اليوم أيضاً، نـور ستأتي إلى هُنا لتناول العشاء ولا يصح وجودك في المنزل"

" هكذا إذاً، أصبحتُ أُطرد من المنزل لأجل ابنتك نـور "

ضحكتُ لكلامه " الصبر يا ولدي، أشهر قليلة وستكون أنت ونور هُنا دائماً "

ذهب يمشي لغرفته وهو يُردد " الصبر الصبر يا الله "

غيرتُ ملابسي وبدأت بالطبخ، جهزتُ طبق معكرونة الدجاج التي تُحبها نـور، وضعتُ الأطباق على السفرة وغيرتُ ملابس الطبخ، رششتُ عطري المفضل وانتظرتُ نـور في لهفة، منذ زمن بعيد لم أبقى مع أحد أتحدث كل هذا الوقت، نـور أصبحت ابنتي وصديقتي.

اتصلتُ لها أستفسر عن تأخرها " مرحباً نور، أنا جهزتُ العشاء وفي انتظارك"

" مرحباً خالتي، أنا أُحاول مع يام أن يوافق على خروجي لمنزلكم "
" أعطيه الهاتف سأحدثه أنا "
" مرحباً نور"
" مرحباً يام، اسمح لنور بالعشاء في منزلي، صدقني لا مشكلة في هذا، فقد طردتُ آسر لأجلها، حتى لا تعترض أنت على قدومها "
" ولكن يا نـور أنتِ تعرفين أنه لا يصح أنا تأتي لمنزلكم قبل عرسها "
" وما المشكلة في هذا! أولاً آسر هو زوجها الآن، ثانياً أنا طلبتُ منه الخروج لاعتراضك على وجودهم معاً قبل العرس، أما إن كنت تخشى كلام الناس فأنت تعرف أن لا سُلطة لهم علينا "
" حسناً، ولكن لا يأخذكن الكلام، ويطول الليل "
" لا تقلق، سأُعيدها إلى المنزل مبكراً بنفسي "
وبينما أنتظر نور أخرجتُ كتاب الرسائل القديم ووقعت عيناي على إحدى الرسائل
" **أُحبك**
كم باباً للاختيار وقفنا أمامه! وكم كان يبدو سهلاً القرار، حيث أننا لا نتنبأ بالغد، فمن ماذا عساه يكون الخوف!
نقف أمام الأبواب دائماً ونطرقها بناءً على ما يشعر به القلب أو ما يدركه العقل، لا تُسيرنا الحياة، نحنُ نختار سبلها، ونتعثر بنائبات الاختيار ويمحو الوقت وجعها وتصبح الليالي القديمة كحلم، استيقظنا فنسيناه!
وفي صدفة طوقها القدر مددتَ لي يدك فأمسكتُها، أفلتَها فعشتُ أنا بعدها، لا أعرف كم فرحاً عشته معك ولم أحصي كم وجعاً كان بعدك، جمعتُ فقط من الأيام سعادتها، نثرته على الليالي الوحيدة، كان يبدو أن الحياة عادلة فعفوت عن برد شتائها وشتات خريفها، عفوت للصيف بالمطر وحساسية الربيع بألوانه! وأدركتُ أن الباب الذي خلعته لأبقى معك، كان يجب أن أطرق عليه وأسمع بماذا يجيب قلبك، قبل أن أتوه فيه! ووجدتُ بعدها طريق العودة والفرح، ورأيت روحي تُحلق وحيدة سعيدة، أمسكتها، شددتها بحنق، بعد أن رأيتُ ما فيها! كيف انصهرتَ فيها

وقد جمعت شتاتك منها؟ أتُراني كنتُ أبعده وأعيده! أم أنها خانت العهد!
أأُخبرك سراً؟ بعد الهروب وطرق الأبواب منذ اللهفة الأولى إلى شهقة البُعد الأخير "أحبك" طرقت نور الباب وأقفلتُ الكتاب..
وبدأنا بتناول العشاء وأنا أحكي لنـور عن حياتي في منزل خالتي
"وقبل أن تبدأ السنة الدراسية كانت خالتي قد أحبت وجودي في منزلها وأنّي قد توليتُ أمر الطبخ بدلاً عنها، وبدأت أنا بالخروج من المنزل والذهاب لمنزل بعض صديقاتي للترفيه قليلاً، وكان عبد العزيز يوصلني دائماً ونادراً ما كان يتحدث معي، يبقى في صمت طوال الطريق، حتى جاء ذلك اليوم، الذي اقتربتُ فيه من غرفة خالتي لأسألها عن أمر دراستي وكيف سأكملها وأنّي أُفكر في أن أعمل كمعلمة لأتحمل مصاريف تعليمي، ولكن ما سمعته كان صادماً، كان حديث يدور بينها وابنها الذي يصغرني بعام " يا أمي، لا يجب أن تخرج دائماً من المنزل وهي كاشفة عن وجهها، لم يعهد أحد من سكان حارتنا أن يرى وجه بناتنا، ثُم أننا بيت الشيخ صالح، ولا يصلح خروجها الدائم والآن ستبدأ الدراسة أيضاً، عليها الالتزام بالنقاب قبل كل شيء"
تحدث والده "يا ولدي هذا أمر لها الاختيار فيه ولا يُمكن اجبارها على شيء"
" ولكن يا أبي، إنها فتاة في عمر الزواج، ولن يتركها الشبان في حالها، هل أصبحنا بدون غيرة الآن؟ "
" ما علاقة الغيرة في هذا الأمر الآن يا ولدي، النقاب عائد لاختيارها "
" اذاً فلنزوجها ونستر عليها "
شهقتُ وأنا أستمع لهم وأمسكت على فمي بسرعة قبل أن يسمعني أحد، أجابت خالتي " ولكن أنا أُريدها أن تبقى معي في المنزل، بعد زواج أختيك لا أحد هنا يساعدني "
رد زوجها في غضب " ماذا عن العاملة التي أحضرتها! هل تُريدين تحويلها إلى خادمة الآن! هل سننهش كُلنا في هذه الفتاة المسكينة! لا حول ولا قوة إلا بالله! "
تجاهلت خالتي غضبة وقالت " ماذا عن تزويجها لابننا؟ "

أجاب أحمد ابنها " ولكن يا أمي إنها تكبرني بعام، ثُم إنها لا تعجبني، فتاة عنيدة وتبدو قوية، لا أحلم بفتاة مثلها "

كنتُ أقف وأنا أستمع لهم وهم يُناقشون مستقبلي وزواجي ولبسي وكأنني حيوان أليف يمتلكونه لا انسان له رأي وفكر واختيار! اقترب مني بهدوء عبد العزيز وقبل أن أُحدث جلبة أقفل فمي بيده ثم أبعدها بسرعة وأشار لي بأن أهدأ لنكمل الاستماع لهم

ردت خالتي على كلام ابنها "ولكن يا ولدي، ما تزال فتاة جميلة ثم إنها ابنة خالتك ليست فتاة غريبة، أرجوك فكر بالأمر"

"وماذا إن رفضت يا أمي"

أجاب الشيخ صالح بحزم " إن رفضت فلها ذلك ولن نُجبرها "

ردت خالتي بعناد " ليس لها أن ترفض، لا أحد لها غيرنا وترفضنا! "

سحبني عبد العزيز من يدي، واتجهنا لحديقة المنزل وأنا في ذهول مما سمعته، كانت يدي ترتجف ودمعة معلقة بعيني ترفض بعناد أن تُذرف ضعفاً وخوفاً!

بدأتُ بالحديث وأنا أختنق بعبرتي " لا أُريد يا عبد العزيز، لا أُريد الزواج بأحمد، لا أُريده، لماذا يتآمر الجميع على هذه الأرض ضدي! لماذا؟ ماذا فعلتُ بكم "

تكلم عبد العزيز معي بحزم غريب " اسمعي يا نـور، لا أحد وأنا أعنيها لا أحد هُنا يمكنه إجبارك على شيء هذا أولاً "

سألته "وثانياً؟" أكمل كلامه "أُريد اقتراح أمراً ما ولا أدري إن كان مناسباً أن أقوله الآن "

أجبته بهدوء " لا عليك، أسمعك، أكمل حديثك "

بدأت حِدة كلامه تقل "نـور أنا منذ رأيتك قبل عام في كلية الطب وقد أخبرني عنك أحمد وأنا مُعجب بكِ، بإصرارك على طريقك، بأخلاقك ولُطفك مع الجميع، بضحكتك الساحرة، ولكن فضلتُ الصمت والانتظار إلى أن أكمل سنتي الأخيرة وأجد عملاً مناسباً وأتقدم لكِ، وقد حدث ما حدث، والآن أنا أعرض عليكِ الأمر وبالطبع يمكنك رفضي في نفس اللحظة الآن

ورفضك لن يُغير من الأمر شيئاً وأعدك بهذا، سأبقى مُدافعاً عنكِ، وزواجك من أحمد إن كنتِ ترفضينه سأمنعه وأنا قادر على هذا "

كان كلام عبد العزيز صادماً لي، لم أُفكر به أبداً وكان من غير المتوقع طلبه هذا، ولكن لا أدري كيف أجبته: " إن طلبت من عمك الزواج بي سيوافق؟ "

" بالطبع، هو قد طلب مني من قبل الزواج والبقاء هُنا في منزله، وبما أن خالتك تُريدك بقربها فستوافق أيضاً، وما إن أُكمل هذه السنة وأجد عملاً سنخرج لنستقل في منزل خاص بنا، وبالطبع يمكنك إكمال تعليمك "

ثم استطرد " ولكن هذا لا يعنِ أبداً أنّي أقول أن زواجك مني هو الحل، إن وافقت فسيكون لرغبتكِ بهذا الزواج فلا أقبل أبداً أن أكون حلاً بالنسبة إليكِ، فأرجوكِ أخبريني عن صدق رغبتك بي "

أجبته دون تفكير " فلتطلب الزواج بي من عمك إذاً، وتسمع إجابته وإجابة خالتي، ثُم بعدها ستسمع بقراري منهم "

وبعد أيام، سهرتها وأنا أُفكر بطلب عبد العزيز، وأفكر به وأصلي وأدعو الله أن ينقذني من كل هذا الضياع والتشتت

جاءت خالتي مستبشرة تسألني " نـور يا ابنتي، تعرفين عبد العزيز، هو رجل على خُلق وصاحب علم وقد عاش في منزلي لمدة طويلة وما رأيتُ منه إلا خيراً، وكنتُ أُريدك زوجة لابني ولكنه طلب الزواج بكِ من عمه فقدمته على ابني وارتضيناه زوجاً لكِ، والآن جئتُ أسألكِ عن رأيكِ في الأمر! "

المحطّة السابعة

عُرس

أنتظر، وأنا الذي لم أعتد الانتظار، كم تبدو الدقائق حلقات مفرغة تدور حول نفسها وأنا أُراقبها حتى كرهتُ البقاء منسي، وخرجتُ أنتظر على عتبة الباب وأتذكر انتظار نـور لآسر قبل أعوام مضت مرتدية وشاحاً يحميها من شتاء صنعاء، اقتربتُ منها أسألها " أهو متعب الانتظار؟ "
أجابت دون أن تلتفت " لا أدري، اعتدتُ الانتظار! ولم أتساءل يوماً إن كان مُتعِب! "
" وما الذي انتظرتِه حتى اعتدتي؟ "
"كل شيء، الأحلام، مرور الأيام، عودة الأصحاب والمشاعر المُراقة على عتبات الأقدار، وعودة آسر كل يوم "
وأنا الآن أنتظر نـور وأحمل كل التعب في قلبي وكل العتب في عينيّ وقد تركتني أنتظرها كل هذا الوقت، حتى خرجت أخيراً وهي تضحك مودعة نـور، سألتني متعجبة " أكنت تنتظرني؟"
" تأخرتِ كثيراً "
"كانت ساعتان فقط، أم أنك اشتقت إليّ؟ "
" لندخل المنزل الآن وأُعاتبك لاحقاً "
وقبل أن أبدأ العتب، وضعت عباءتها وحجابها جانباً، فكت شعرها وأعادت لفه، وسألتني " لماذا فعلت جدتي كل هذا؟ "
" لم أفهم! "
" والدتك، جدتي خلود، لماذا فعلت كل هذا بالخالة نـور! "
" هل حكت لكِ نـور عن هذه القصة القديمة؟ "
" أجل، طلبتُ منها أن تحكي لي، ولم أفهم كيف ولماذا فعلت جدتي كل هذا بفتاة قامت بتربيتها وكانت تناديها أمي! "

" وما لك وكل هذا يا نور! "

" أسميتني نـور، وكأنك تُخلد اسمها! وتسألني مالي ولكل هذا! على الأقل احكي لي أُريد أن أسمع"

" لم يكن اسمك تخليداً لها، كان اسمٌ أحببته "

" فأنت لا تُحبها إذاً؟ "

" ومن قال أنّي لا أحبها، أنا فقط ظلمتُها يوماً دون أن أقصد، أحببتُها كثيراً وقتها، كانت بهجة في حياتي، شيء جميل أردتُ التمسك به والبقاء بقربه ولكن الخوف يا نـور، خشيتُ أن أتركها يوماً بعد أن نكون قطعنا أميالاً في الغرام، كانت قنينة عطر خشيتُ أن تبقى طويلاً بقرب صاحبها في مكوثه والسفر حتى لا ترش العطر إلّا على يديه، خشيتُ إن تركتها بعد الوقت الطويل أن تُصبح معطوبة "

" ولكنك كسرتها وتبخر عطرها في السراب "

" لم أُدرك وقتها حجم السقوط حتّى وصلت شظاياها إلى قلبي وغُرزت هناك! بعد ذلك اليوم غادرتُ البلد بصحبة أبي حين وجد عملاً لي وله في السعودية، ولم أعرف بعدها ما حلَّ بنــور، حتى رأيتُ أمي بعد عام وقد وصلت إلى السعودية وهي تحكي لي عن نـور وأنها تركتها في منزل خالتها بلا أهل ولا مال!

وقفتُ أمامها مذهولاً ولم أتمالك صوتي وأنا أصيح في وجهها " ماذا! كيف يكون ذلك! هل ترك عم نـور كل ثروته لكِ فقط!"

أجابتني ببرودها المعتاد " أجل فعل، ألم أكن زوجته وجليسة ابنة أخيه المدللة! ألا أستحق هذا؟ "

" ولكنه ترك لكِ كل هذا ظناً منه أنكِ أمٌ حقيقية لنـور! ولكن يا لبلاهته! فأماً قد تركت طفلها! ولم تحتضنه يوماً ولا يهمها أمره في شيء، أماً تركته في فضاءٍ خاوي، لا يعرف من الحب شيئاً سوى التخلي والهرب! أأكسرها أنا وتُحرقين بقاياها أنتِ! "

كانت تقف في هدوء تستمع إليّ " ما الذي تُريده مني الآن! "

" إن كان ترك لكِ كل أملاكه فمن المؤكد أنه لم يترك لكِ أملاك نـور "
" ماذا تعني! "
" منزل نـور، منزل والدها المحترق، أعيدي لها منزل والدها "
" لا أملك أوراق ملكيته "
"كاذبة، أعيدي أوراق المنزل بهدوء وإلّا كنتُ أول من يقف ضدك "
" أتقف بوجه أمك! "
" أيُّ أم! أتقصدين نفسك! أم كان انجابك لي شرفاً تستحقين عليه كلمة أم! "
" سأعطيك المنزل لتعيده لنـور ولكن لا أُريد رؤيتك ما حييت"
" وهل كانت رؤيتي تهمك يوماً! ثم بعد أن يدور الدهر وقد أكلت منك الحياة صحتك وروحك ستذكرين أنّي أخذت إثم كبير من على عاتقك، وسيبقى شتات نـور ورمادها يُلاحقك "
أخذتُ منها بعد ذلك أوراق ملكية المنزل وطلبتُ إجازة من عملي حتى أعود إلى صنعاء وأُعيد إلى نــور حقها "
ابتسمت نـور وهي تستمع إليّ وكأنها انتصرت لنـور معي وسألتني متلهفة " وهل أعدته لها؟ "
" بالطبع فعلت، ما إن وصلت إلى صنعاء، بحثتُ عن منزل خالتها حتى اهتديتُ إليه أخيراً، كان الكثير من الناس حوله وتعلوا أصوات الزغاريد من الشبابيك، اقتربتُ منه وكانت الشمس توشك أن تغيب وسألتُ أحدهم " أهذا منزل الشيخ صالح؟ " أجابني وتبدو عليه الفرحة " نعم تفضل "كان شاباً له هيبة ظاهرة من صوته، طويل القامة يرتدي بدلة تبدو كبدلة عُرس، سألته " هل الشيخ صالح موجود؟ " أجابني " وماذا تُريد من الشيخ صالح؟ "
" أملك أمانه أُريد إيصالها لفتاة تسكن منزله "
بدا عليه التعجب وسألني " أنا ابن أخيه، عن أي فتاة تتحدث! أخبرني باسمها لا بأس في ذلك" أجبته بعد تردد " أبحث عن نـور إسماعيل "
بدا عليه التعجب والغضب معاً وسألني " ومن أنت؟ "
" يام، أنا يام وأملك أمانة لنـور من والدتي أرملة عم نور "

" إذاً فأنت خطيبها السابق! "
" أنا هو، والآن أُريد مقابلة الشيخ صالح لإيصال الأمانة "
" الشيخ صالح سيعود بعد ساعة من الآن، ولكن يمكنك تسليمها لي، فأنا زوج نـور منذ الليلة"
تفاجأت بجملته الأخيرة! هل حقاً نور ستتزوج! وهل هي راضية عن هذا الزواج! للحظة خفتُ أن يكون زواج بالإجبار لنور وأن يكون هذا الشخص غير ما يبدو عليه، وتعيش معه نور في ظلام، ولا أدري من أين جئتُ بهذا الحق بالخوف عليها! فكرتُ بسؤاله عن إن كانت نـور راضية بهذا! ولكن تراجعتُ عن ذلك وسألته البقاء لآخر العُرس فرحب بي على مضض.
وجاء الشيخ صالح ومعه شيخ آخر وبدأ بعقد القِران، وبعد أن تم العقد، اقتربتُ من الشيخ صالح وبقربه عبد العزيز وسلمتُ ملكية منزل نور له وجعلتُ من الشيخ صالح شاهدٌ بيننا، وقبل أن أُغادر منزلهم اجتمعتُ بعبد العزيز على انفراد وبدأتُ الحديث معه محاولاً تجنب أن يبدو الحياء على صوتي " أنا أعرف أنك قد تستغرب كلامي هذا ولكن نور فتاة يتيمة لا تملك من الأمر شيئاً فعليك أن تكون لها سنداً وعوناً ولا تؤذيها بالكلمة ولا الفعل" كان يستمع إليّ بهدوء عجيب وسألني أن أُكمل كلامي "وقد لا أكون وصيّ على نور ولا قريب لها ولكن ما دمتُ على هذه الأرض لا أتركها أبداً وقد ظلمها أحد"
ابتسم لكلامي وقال "ما كنتُ رجلاً يظلم فتاة وضعت حياتها وكل أمالها بين يديه، فأنا منذ الليلة عاهدتُ نفسي أن أكون محراك الأحلام الذي تُديره نور ولا أخون عهدي أبداً، أما عنك فشكراً لك على إعادة حق نور إليها "
كان كلامه أكبر من أن أجيبه بشيء آخر غير السلام والوادع ورحلتُ بعدها عن صنعاء وأنا أرجو أن تكون نور قد وجدت سعادتها مع هذا الرجل.
قامت نور من مقعدها بعد أن تنهدت وهي تفكر بأمر أجهله وقبل أن تصل لباب غرفتها عادت من جديد تسألني " وكيف تزوجت أنت بأمي! "

"كان الأمر غريباً ولم أتوقعه يوماً، كم كان عنادي أكبر من أن يختار لي أحد طريقاً أسلكه، ولكن بعد أن وصلت الرياض كان والدي يستقبلني ويحمل قراراً لم يترك لي فيه اختياراً!
كلمني وهو يبتسم " خطبتُ لك "
انتفضت من مكاني " ماذا! عن أي خطبة تتحدث! وهل ستزوجني دون أن أعرف أيضاً! "
اعتدل في جلسته وقد تحولت نبرة صوته إلى استعطاف غريب " يا ولدي حياة العزوبية أصبحت مرهقة بالنسبة إليّ، خاصة في هذه البلد، إن من المُريح أكثر أن تتزوج وتكون لك أسرة، فنعيش في راحة أكبر، نستأجر شقة أحسن ونعيش بسهولة أكثر "
أجبته بتمرد " فلتتزوج أنت إذاً! أم أنك لا تنسى عشقك الأول؟ "
نظر لي بغضب وهو يقول " أنا أخذتُ نصيبي من الحياة ولا أفكر في الزواج، أما أنت فهو وقتك للزواج، خطبتُ لك ابنة صديقي المهندس خالد، وأنت تعرف كم له من الفضل علينا، وكم له من المعزة في قلبي "
" ولكن يا أبي أنت تعرف كم أخشى أمراً مثل الزواج "
" لا ضمان في الزواج، هو أمرٌ متروك للنصيب والقدر، وقد حان قدرك فتزوج"
وطال الجدال بيني وبينه حتى رضختُ له ووافقتُ على الزواج بوالدتك، وكانت فتاة بها قدر من الجمال والرقة واللطف الكثير، فعشتُ معها أياماً سعيدة، وقد زادت سعادة بعد أن أنجبتك، وأسميتك نور لما كان لك من ضياء في حياتي، وكنتُ أصحبكم معي في كل رحلاتي والسفر"

بعدها ارتاحت نور وذهبت لتنام هانئة، وما إن استيقظت في الصباح جاءت إليَّ وقبلتني لأول مرة وهي تقول " صباح الخير يام "
أجبتها والكلمات تتطاير فرحاً " صباح النور "
بدأت بتناول الفطور معي وهي لا تتوقف عن الحديث " محاضرتي اليوم تبدأ في العاشرة، وأصبح الذهاب للجامعة أسهل بعد شراءك السيارة لي، الخالة نور تقول إن عليَّ التركيز على مشروع تخرجي الآن وهي ستهتم بتفاصيل العرس "

وأصبحتُ أراها مبتهجة دائماً، وسعيدة بوجودها بقربي وارتباطها بآسر، تعمل على مشروع تخرجها طوال الوقت، وتناقشني بأفكارها وبدأت أُساعدها بالرسم بعد أن اعتزلتُ الفُرشاة لزمنٍ طويل!

" الخالة نور تقول أنه من الجيد إضافة أفكار عن الحضارة العربية والإسلامية إلى مشروع تخرجي"

" فكرة جيدة "

" فكرتُ بعمل بعض الفيديوهات التصويرية عن بعض العلماء المسلمين وما أضافوه للعلم والعالم "

" رائع، أنتِ مبدعة ويمكنك إنجاز الكثير "

اقتربت مني وطوقتني بذراعيها وهي تقول لأول مرة " أشكرك يا أبي "

وامتلأت عيناها بالدموع وهي تسألني " لماذا لم تأتي إليّ كل هذا الوقت؟ لماذا تركتني وحيدة! ولم تسأل عني حتى! "

أجبتها وأنا أمسح عن عينيها الألم " خشيتُ أن أقترب بعجزي وحسرتي فأكون عبء ومشقة، أيُ أب هذا الذي لا يمكنه مساعدة نفسه حتى! "

"كان يكفي وجودك بقربي، كان يكفي هذا "

" ها أنا الآن بقربك وسأبقى كذلك، بعد أن رأيتُ النور بعودتك إليّ لن أبتعد أبداً "

وبدلتُ سنين البُعد بأن شاركتُ نور كل لحظة فرح جديدة، فكنتُ حاضراً في حفل تخرجها بقدمي المبتورة! كنتُ أقف إلى جوارها وهي ممسكة شهادتها وتملأ الدنيا بسعادتها وأملأها أنا بالفخر بها!

وبعدها كان عُرسها، فأصرت نور على دخولي إلى قاعة العرس وأن أزفها إلى عريسها أنا وعكازي، السادس من أيلول ٢٠١٥ تتعالى أصوات الزغاريد والكثير من النساء يلتحفن السواد في قاعة عرس واسعة وجميلة تقف نور بفستانها الأبيض آخر الممر وبجوارها امرأة كاشفة عن وجهها ولكن لم أستطع تمييزها، أجُر قدمي على الممر ولكن دون الشعور بالخيبة هذه المرة، أنا ذاهب لابنتي لأزفها وأرى الفرحة مرسومة على مقلتيها، أمسكتُ بيديها الصغيرتين وقبلتُ رأسها

والتقطت المصورة لنا بعض الصور، واقتربت مني تلك المرأة وهمست لي مُبارك لابنتنا فعرفتُ أنها هند وقد غير الزمن أو مساحيق التجميل ملامحها، غطت نور وجهها بالطرحة ومشيتُ معها على الممر وآسر ينتظرنا في آخره، وصورة هند لا تغيب عن بالي، أتذكر ذلك اليوم، اليوم الأخير لنا في شقتنا الصغيرة في السعودية، آذار ١٩٩٨ نور تحمل الكثير من الألوان وترسم بها على كل شيء حولها وتسألني بعد كل رسمة عن رأيي بجمالها، أُبالغ بمدحها فتضحك وهي تقول " مجاملة جيدة يا أبي " فأحتضنها وكأنّي ملكتُ الدنيا!

وأنا أحكي لهند عن مرض أمي الشديد بعد انتقالها للعيش في البحرين بصحبة أخيها وأنها تطلب رؤيتي لأول مرة منذ سنين طويلة " يجب أن نُسافر لرؤية أمي يا هند "

" ولكن مدرسة نور! "

" لا بأس يمكنها أخذ إجازة لأسبوع فقط وتذهب لرؤية جدتها "

" جدتها التي لم تذكرها لسنين طويلة! "

" ولكنها مريضة الآن وتطلب رؤيتنا "

" أعتذر يا يام، ولكنه عُرس أختي ولا أُريد تفويته "

" اذاً فهو عُرس أختك لا مدرسة نور، لا داعي للحجج الواهية يا هند، حسناً لن أُجبرك على شيء "

سافرتُ بعدها لأمي، كانت هزيلة للغاية على فراش المرض وقد تغيرت ملامحها الجميلة وذبلت، كانت رؤيتها بهذه الحال مؤلمة ولكن لا بأس يكفي أنها طلبت رؤيتي، اقتربتُ منها وطبعتُ قُبلة على جبينها وسألتها بصوتٍ مبحوح "كيف حالك يا أمي "

أجابتني " الحمد لله، لا أدري بأي حال أنا! ولكن أردتُ رؤيتك "

" وها أنا معك الآن "

حاولت الجلوس وبدأت بالكلام " أعتذر يا طفلي الوحيد، عن كل تلك الفوضى التي تركتك بها، أعتذر عن فقدانك لأمك رغم وجودها على الأرض، ولكن أنا لا أعرف شيئاً عن إحساس الأم، بل لا أعرف شيئاً عن المشاعر! كيف يكون الحزن أو الخوف، كيف هو الفرح أو الحب،

ولا أدري إن كان خطبٌ بي! حتى بعد أحبني والدك، تزوجته فقط لأن أبي قال لي أن أفعل، وأنجبتك دون رغبة مني بأن أُصبح أماً! وهكذا تزوجت عم نور وهكذا ربيتها! أنا لا أعرف ما هو الشعور حتى أعياني هذا المرض، فحفت الموت واشتقتُ لرؤيتك، الآن فقط أنا أشعر.. الآن أنا أشعر.. أشعر بأنّي وحيدة للغاية.. كنتُ وحيدة وسأموت كذلك! "

تفانت الدموع وقتها بإغراق مُقلتيّ وأنا أقول بصوت أجش "سأبقى معكِ يا أمي، لن أتركك وحيدة بعد الآن"

"ولكن سأتركك أنا، مثلما تركتك كل ذلك الوقت، سأموت يا يام أعرف هذا"

وما كانت إلّا ثلاثة أيام حتى توفتها المنية، ورحلت للأبد هذه المرة، سلمتني وقتها كل ما تملك ولم أحصل أبداً على أم!

وبعد أن أكملتُ مراسم العزاء، عدتُ إلى الرياض، كانت الساعة الثالثة والنصف عصراً وأنا أحمل حقائبي وهدية صغيرة اشتريتُها لنور خارجاً من مطار الملك خالد الدولي أبحث عن سيارة أجرة، ولا أتذكر شيئاً بعدها غير أنّي مُلقى على جانب الطريق والكثير من الناس حولي وصوت سيارة الإسعاف يدوي في المكان ولا أشعر بشيء سوى الرغبة بأن أحمل هدية نور من على الأرض، حملني رجال الإسعاف وأنا أرى الأرض قد خلت إلّا من لعبة طفلتي وصوت ضحكتها وملامح فرحتها بهديتها!

فتحتُ عينيّ بعدها وأنا على فراش المشفى، وحولي الطاقم الطبي سألتهم " أين ابنتي وزوجتي؟" فظهرت نور وهند، كانت نور خائفة وهي تنظر إليّ وقد غطا الجبس أقدامي، أمسكت بيدها الصغيرة " أنا بخير يا عزيزتي، لا تخافي"

بدأ أحد الأطباء حديثه "أستاذ يام، عندما وصلت إلى هُنا كنت بحالة حرجة وتصرخ من الألم حتى فقدت الوعي، اتصلنا بعدها بزوجتك ووالدك فجاءوا إلى هُنا، وبموافقتهم لم يكن أمامنا خيار إلّا...إلّا بتر قدمك اليُمنى"

كان صوته لا يصل إلى مداركي، وجملته الأخيرة أسمعها مراراً تدوّي في مسمعي "ماذا! تعني أنّي لن أمشي بعد الآن!"

ثُم التفت إلى قدمي أتفقدها غير مصدق، أجابني "بل يمكنك التعافي والمشي مرة أخرى، ولكن بقدم واحدة فقط، ومسألة التعافي تحتاج الوقت لا أكثر"

كان فقدان أمي وقدمي بنفس الوقت كافياً ليجعلني أفقد معنى الوجود على هذه الأرض، وأن أجد طريقاً للنجاة عليها، ولكن وجود نور كان الشُعاع الوحيد في نفق الوحدة والألم هذا، وبعد شهر من البقاء في المشفى وبدء العلاج الطبيعي بمساعدة والدي، كانت هند تزورني كل يوم في البداية، وبدأت تقل زيارتها لي ويكبر اشتياقي لنور، حتى جاء ذلك اليوم

كُنا في حديقة المشفى، أجلس أنا على كرسي متحرك، ونور تلعب بجواري، كانت هند لا تتحدث ولا تُجيب على كلامي، وثبت من مكانها فجأة ودون أن تلتفت إليّ أخبرتني بقرارها "يام أنا لا أريد الاستمرار بهذا أكثر"

" لا أفهم! الاستمرار بماذا؟ "

" أقصد بزواجنا، أنا لا يمكنني الاعتناء بك ما تبقى من عمري وهذا من حقي، فإن كنتُ أنا في مكانك ستتركني بكل تأكيد"

كان كلامها صادماً لي فأجبتها " بالطبع لن أفعل، لن أترك زوجتي وهي بحاجة لي، ثُم أنّي لستُ بحاجة لمساعدتك، القليل من الوقت وسأكون قادراً على التحرك بمفردي "

" ولكن أنا لا أُريد زوجاً مُعاق، كيف ستعتني بي وبابنتك وأنت لا يمكنك أن تعتني بنفسك حتى! "

أجبتها بحزم " حسناً أنا لا أُريدك، ولكن أُريد ابنتي "

" وكيف ستعتني بطفلة صغيرة! ومن أين ستجني المال؟ "

" أملك الكثير، تركت لي أمي الكثير من المال "

" وماذا عن الاهتمام! لا تُكابر يا يام، أنت لا يمكنك الاعتناء بأي مِنّا، لا أنا ولا نور ولا حتى نفسك، فلا تجعل مصيبتك هذه عبء ومشقة علينا كلنا، دعنا نُكمل طريقنا "

كنتُ أشعر بالعجز وأتقلص مع كلامها، كنتُ أختفي أمامها ولا أملك أي سلاح أُدافع به عن حقي بنور، وجدتُ نفسي مُعاقاً!

أمسكت هند بيد نور، وبدأت بالسير معها مبتعدة، صرخت " انتظري! نور تعالي إلى هُنا، تعالي أُعانقك "

ركضت إليّ نور وعانقتني بشدة وهي تقول "سنأتي مرة أخرى"

والتفتت لهند وهي تقول " أليس كذلك يا أمي، سنعود في الغد " ومشت مبتعدة عني وهي تُلوح لي بيدها، يدها التي أُمسك بِها اليوم وأنا أُوصلها لآسر وأهمس له

" لن أبتعد عنها أبداً، سأبقى دائماً بقربكم، اعتنِ بها جيداً"

المحطّة الثامنة

حُب

تشرين الأول ٢٠١٥ صوت أذان الفجر يشوبه أصوات القصف وتحليق الطيران فوق سماء صنعاء، أُغمض عينيَّ بشدة محاولة تجاهل صوتها، نهض آسر من السرير ولم أُحرك رأسي، اقترب مني وهمس لي " لا بأس افتحي عينيكِ "

سألته مغمضة " متى تتوقف الحرب؟ "

" متى ما توقف الكُره والجشع "

" أيتوقف يوماً! "

" قد لا يختفي ولكن يتلاشى عن حكم العالم بهذه العبثية "

وتلاشى خوفي مع وجود آسر وامساكه لكفي الصغير وقد تغيرت الفصول بالحياة السعيدة معه وأزهر الورد طوال السنين، سألته وأنا أُرتب سجادتي بعد الصلاة " هل ستذهب لعملك اليوم؟ "

" هل تخافين أن أذهب ولا أعود؟ "

" أرجوك كف عن هذا وأجبني "

ضحك وأجابني " بالطبع سأذهب، قد مضى على عُرسنا شهر وأكثر "

" لا أقصد هذا، بل أقصد أن صوت القصف مخيف "

" لا تخافي يا نوارتي، سيتوقف القصف مع شروق الشمس "

كنتُ أُصدق كلام آسر دائماً، بقيتُ أنتظر توقفه وعيني معلقة على ضوء الشمس القادم من الستائر، حتى غفت عيناي ولم أشعر بعدها بالقصف ولا بآسر وهو ذاهب لعمله، أيقضني صوت هاتفي يرن باتصال من آسر "صباح النور"

"صباح الخير حبيبي"

" ما زلتِ نائمة؟ "

" الآن سأنهض "

" جيد، اسمعي نوارتي، أمي لم تذهب للمستشفى يبدو أنها متوعكة قليلاً، تفقديها عزيزتي "

" سأذهب إليها الآن لا تقلق وسأبقى معها "

اقتربتُ من غرفة الخالة نور وقبل أن أطرقه سمعت صوتها المبحوح من الداخل وهي تقرأ القرآن، طرقته بهدوء فأذنت لي بالدخول، كانت تجلس على سريرها ووجها شاحب ولكن لا تُفارق وجهها الابتسامة سألتها " هل تناولتِ الفطر خالتي؟ "

" لا يا ابنتي، كنتُ أنتظرك، قد جهزتُ كل شيء على الطاولة، فلنأكل سوياً "

" ولكن يا خالتي تبدين متعبة، سأحضره لكِ "

" لا بأس، فلنأكل وأعود مجدداً لسريري "

بعد أن تناولنا الفطور، عُدتُ بِها إلى سريرها وقد بدا عليها الإرهاق الشديد، استأذنتها أن أُكمل عمل المنزل وأعود إليها، أحضرتُ لها كأس من الماء والعسل الدافئ وجلست بجوارها، "هل تشعرين بتحسن يا خالتي قليلاً؟ "

" أجل، أنا فقط مرهقة من صوت الطيران والقصف هذا "

" إن شعرتِ بالخوف مرة أخرى لا بأس بأن تطرقي غرفتنا ونبقى كلنا معاً "

ابتسمت لكلامي وهي تتحسس ملامح وجهي " ما أجمل أن يكون لكِ بنت، كم تمنيتُ ذلك فرزقني الله بكِ "

" وأنتِ أصبحتِ لي أماً أخرى "

" اذاً فلتناديني بأمي، أُحب سماعها منكِ "

وافقتُ على طلبها وسألتها " متى كانت أول مرة نطق بها آسر كلمة أمي؟ "

" هذا الوغد الصغير قبل أن ينطق كلمة ماما بدأ بكلمة " بابا "كانت روحه معلقة بوالده "

"كيف كان عمي عبد العزيز؟ هل يُشبه آسر! "

" يُشبهه كثيراً، له نفس القامة والابتسامة، فطنته وتحمله للمسؤولية، الحب الكبير الذي يحمله للعالم، رجاحة عقله وطيبة قلبه، لكن كان عبد العزيز يختلف عن آسر بأنه كان لا يتكلم عن شعوره دائماً، كان شخصاً يحمل الكثير بداخله ولا يبوح به

حتى أنّي لم أُدرك كم الحب الذي يكنه لي! إلى تلك اللحظة وقت أن كنتُ في منزل خالتي بعد زواجنا بعدة أيام، الساعة الواحدة بعد منتصف الليل طلب مني عبد العزيز أن أُحضر بعض الفاكهة من المطبخ ارتديتُ قميص صلاتي ونزلتُ السُلَّم مسرعة وبعد أن غسلتُ الفاكهة ووضعتها على الصحن وأنا في طريق عودتي على دَرَج السُلَّم كان ابن خالتي وائل يقف هُناك، تحركتُ إلى الجانب الآخر ولكنه وقف أمامي نظرتُ إلى عينيه وكأن الشرر يتطاير من عينيّ ويضيء في عتمة المكان

" ألا تبتعد لأمضي في طريقي! "

" أبتعد فقط! بل أفرش لكِ الطريق بالورد والريحان يا ابنة خالتي "

" هل جُننت! أم أن غُربتك في الدول الأجنبية قد أفقدتك صوابك! "

" بل عيناكِ من أفقدتني صوابي "

" يا لوقاحتك! منذ أن جئت من تلك البلاد البعيدة وأنا أرى في عينيك المكر وانعدام الأخلاق وكنتُ أُكذب نفسي وأتجاهل نظراتك لي ولكن كنتُ مُحقة "

" منذ أن جئتُ وأنا أرى جميلة ليس لها مثيل في كل تلك البلاد! كيف كنتُ تائهاً عنكِ وأخذك عبد العزيز، ولكن الغرام يا جميلة فوق الجميع أليس كذلك؟ "

" يا عديم الشرف ابتعد عن طريقي ولا تقترب مني وإلا صرختُ الآن وأيقظتُ كل من في المنزل "

" حسناً سأبتعد الآن ولكن تأكدي لن أنساكِ "

أكملتُ طريقي مسرعة غاضبة أشعر بأن الدم يغلي في عروقي، كيف يجرؤ هذا الوغد على مغازلتي والاستهانة بي لهذه الدرجة! هل هذا لأني فتاة يتيمة ضعيفة لا قوة لها ولا سند! هل سيستمر بهذا! وأبقى أنا ساكنة ساكتة لا أقوى على شيء! لم أكن غاضبة وناقمة مثل تلك اللحظة كانت

نبضات قلبي تقرع كطبول الحرب ويشتعل صدري مثل بركان ساخط على كل الصخور حوله وبداخله، أقف أمام باب غرفتي، أحمل طبق الفاكهة والسكين بجانبها وأُفكر إما أن أقتله يوماً أو أقتل نفسي! وقبل أن أدخل تريثتُ وفكرت، ماذا عن عبد العزيز! أليس زوجي الآن وأنا عرضه وشرفه! وهو سندي ومسكني!

لماذا لا أُخبره فيخرجني من هذا المنزل ونُكمل حياتنا بعيداً عن هُنا! هل سيصدقني! هذا ابن عمه وهذا بيت عمه الذي عاش فيه لسنين طويلة! ولكن الآن يظهر صدق العهد الذي قطعه لي وشرف الكلمة التي أطلق بها الوعود.

فتحت باب الغرفة، وضعت الطبق على الطاولة المقابلة له وجلستُ أمامه على الكرسي وأنا أتنفس بصعوبة وكأن جبل أطبق على صدري فسألني مباشرة "ما بكِ! هل حدث شيء أزعجكِ!"

" أزعجني! بل إن دمي يفور "

" لهذه الدرجة! ما الذي حدث لهذا كله! "

" وهل أنت مُصدقي إن أخبرتك! "

" وما لي بامرأة لا أُصدقها! أنتِ زوجتي الآن ووالله لا أكذبك أبداً، أستحلفك بالله أن تتكلمي"

" ابن عمك وائل، منذ أن عاد من سفره وأنا لا أرى في عينيه إلا الدناءة وكنتُ أُكذب نفسي، حتى استوقفني قبل قليل على دَرَجِ السُلَّم وأسمعني حديث لا يقوله إلا عديم شرف فاشتعل الغضب في عينيّ وغمر السخط قلبي ورأيتُ أنّي مُستضعفة لا ظهر لي أستقيم به ويهابه هذا النذل حتى تذكرتُ وأنا على باب غرفتنا أنك أصبحت زوجي وقوتي الآن ورأيتُ أن أُخبرك ولا أُريد منك أن تتقاتل معه ولا أن تعم الفوضى هذا المنزل بسببي، كل ما أُريد أن نرحل عن هُنا" كانت كل كلمة أقولها تنزل على مسمع عبد العزيز وتُغرز كالسهم في ظهره وهو قابضٌ على يده وغضبه من أن يثور ولولا حِلمه ورجاحة عقله لقتل وائل في تلك اللحظة وسألني "هل كان وائل بكامل عقله! "

" لم أفهم ماذا تقصد؟ "

" أقصد إن كان يترنح أو قد شرب شيئاً والعياذ بالله "

" بل كان يقف مُتزناً "

" يا أسفي على ابن عم كهذا! يُريد هتك عرضي وشرفي، لا بقاء لنا هُنا أبداً يا نور، أنا أحميكِ منذ اللحظة وأنتِ مني، سنرحل إن شاء الله "

في صباح الغد كان يقف عبد العزيز مع وائل في مدخل المنزل وكنتُ أسمع حديثهم دون أن يشعروا

كان وائل يسأل عبد العزيز بلهجة حذرة متوجسة "هل هناك خطب ما بنور! لماذا لم تحضر على الغداء؟ "

أجابه عبد العزيز بهدوء غريب "هل يهمك حضور زوجتي على الغداء! "

" أتفقد ابنة خالتي لا أكثر، وقد كان غداء لذيذ وعليها تذوقه "

" نأكل مثله دائماً ولكن يبدو أن طعامهم غريب في روسيا فتراه غداء عظيم لا يجب أن تفوته زوجتي! "

بدا على وائل التوتر من حديث عبد العزيز "بعضه مستساغ الطعم"

" بل أعتقد أنك قد أكلت شيئاً غريباً عندهم "

" ماذا تقصد؟ "

اقترب منه عبد العزيز وبدا عليه الغضب وأمسك بياقته " أقصد أنك قد تناولت ما أفقدك النخوة والشرف وحتى عقلك "

حاول وائل أن يتخلص من قبضة عبد العزيز وهو يتمتم بتوتر " لا أفهم ماذا تقصد! "

" تعرف جيداً ماذا أقصد "

أبعد وائل قبضة عبد العزيز أخيراً وبدأ بسرد كلامه بقلق وعنجهية بنفس الوقت " أتجرؤ على قول هذا وأنت تسكن دارنا!"

أجابه عبد العزيز وقد احمّر وجهه من الغيض "ما سكنتُ هذا الدار إلا لأن الشيخ صالح يصون العرض ويحمي الغريب قبل القريب، أما وقد ظهر فيه مثلك لا بقاء لي فيه ولا عودة لي إليه"
ابتعد وائل وهو يلوح بيده ويقول "جيد فلتفعل إذاً "
فتح عبد العزيز الباب ووجدني خلفه كقط صغير خائف تاه عن والدته في ليلة شتوية يستنجد به ويراه المأوى الأول والأخير، أمسك بيدي مطمئناً قلبي المتوجس خوفاً وضياعاً
"لا تخافي ولا تحزني سنرحل اليوم عن هُنا وهذا النذل سيبقى هو الخائف والذليل لا أنتِ ولولا أن أباه قد أكرمني ما تركته بحاله ولا أبقيتُ هذا المنزل هادئاً هانئ "
في الليل كُنا نقف أمام الباب ذاته نحمل حقائبنا والجميع حولنا لا يفهم أحد سبب قرارنا هذا، يقف الشيخ صالح منزعجاً
" لماذا يا ولدي؟ ألم تكن بمثابة ابناً لي وقد عشت من عمرك الكثير في دارنا! "
" أعتذر يا عمي ولكن لا مكان لي ولزوجتي هُنا هذا أفضل لي" توقف عبد العزيز عن كلامه والتفت لوائل وأكمل "لي ولزوجتي عرضي وشرفي"
ذُهل الشيخ صالح من جملة عبد العزيز الأخيرة والتفت لوائل وكأنه فهم أن أمراً عظيماً قد حدث، فسكت عن عتابه وتركنا لحال سبيلنا أما خالتي زاد غضبها "ماذا تقصد! أي شرف! أهذا جزاء كرمنا لكم! "
أجابها عبد العزيز بكل هدوء "يعرف وائل قصدي تماماً"
التفتت إلي خالتي "بعد أن تركتكِ زوجة عمكِ بِلا مأوى ومال أخذتكِ لمنزلي وزوجتكِ والآن ماذا! ترحلان دون تفسير واضح! حسناً فلترحلي ولكن اتركي كل الذهب الذي أهديتُك إياه في زواجك"
أجبتها بهدوء "قد تركته كله ولا حاجة لي به، أما تزويجك لي وبقائي هُنا فأنا شاكرة لكِ هذا، ورحيلي له أسبابه ولن أُفصح عنها لا أقول لكِ غير أننا اتخذنا قرارنا"
أمسك عبد العزيز بيدي وأخذنا حقائبنا وغادرنا ذلك المنزل، سألته " والآن! إلى أين! "
" إلى حياة لا يحكمها أحد، إلى حُرية وحُب "

أخذني بعدها لشقة صغيرة استأجرها من صديقه، وقد وجد عملاً في صيدلية قريبة منها، كانت الشقة فارغة، فيها فقط فراش ولحاف، جلستُ مع عبد العزيز عليه أمسك بيديّ وقد بدت الشقة كفضاء شاسع من حولنا والنجوم تسترق السمع لحديثنا

وقال: " هُنا نبدأ الرحلة ونملأ هذا الفراغ بالعلم والحُب والأطفال، هُنا نسرق السعادة من العالم ونضعها في قلوبنا "

وبدأنا نعيش الحياة، نُكمل تعليمنا في الجامعة، ويعمل عبد العزيز ويُدخل كل يوم شيئاً جديداً على منزلنا حتى جاء ذلك اليوم الذي حملتُ بآسر وكانت سعادتنا لا تُوصف كان ذلك في صيف ١٩٩١ أجلس بجوار عبد العزيز نُشاهد التلفاز وينظر لي كل ثانية ويبتسم ويسألني "حقاً سأصبح أب! ويأتي طفل جميل يُثير الضجة في هذا المنزل! "

" إن شاء الله، سيأتي طفلاً يملأ منزلنا سعادة "

كان صوت أمل عرفه وقتها هو ما يُعكر صفو فرحتنا وهي تغني

وين وين
وين الملايين
الشعب العربي وين
الغضب العربي وين
الدم العربي وين
الشرف العربي وين
وين الملايين
وين وين

ومشاهد الأطفال تستنجد والنساء تبكي وتُنادي على العرب لإنقاذهم، سألت عبد العزيز "عندما يكبر طفلنا هل سنكون قد استعدنا فلسطين! "

" لا أعتقد هذا إذا بقيَّ العرب على حالهم "

" أخشى أن يسوء حالهم أكثر "

" البعض منهم على هُدى ونور يا نور ولكن أكثرهم في غفلة "

أكملت أمل عرفه

الله معانا أقوى وأكبر من بني صهيون

يشنق يقتل يدفن يقبر أرضي مابتهون

الدم الأحمر راوي الأخضر في طعم الليمون

نار الثورة تقوى تسعر نحنا المنتصرين

ابتسم لي عبد العزيز وقال: " الله معنا، كل ما علينا أن نتعلم ونُعلم الناس، أن نفيد العالم بعلمنا، ومثلما أكملتُ تعليمي وبدأتُ في العمل في المستشفى سأبقى معكِ حتى تفعلين، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً "

توقفت الخالة نور عن حكايتها وقالت: "والآن انظري يا نور ماذا حدث في العرب وإلى أين وصل بِنا الحال! كُنا نخاف على فلسطين والآن لا ندري من نبكي! "

" سيتغير الحال يا أمي، لا يبقى شيئاً على ما هو عليه "

" لا يُغير الله ما بقومٍ حتى يُغيروا ما بأنفسهم يا ابنتي "

قاطع حديثنا صوت آسر عائداً من عمله " السلام عليكم يا نوارات الدار "

وثبتُ من مكاني "وعليكم السلام حبيبي، نسيتُ تسخين الأكل، سيكون جاهزاً بينما تُغير ملابسك"

"لا بأس حبيبتي على مهلك" اقترب من والدته وقبَّل رأسها "كيف أنتِ يا نور حياتي"

"أنا بخير بوجودك أنت ونور بقربي"

في الليل كُنا نجلس جميعاً وقد بدأتُ كلامي مع آسر واخباره عن العمل الذي عرضته صديقتي "آسر نسيتُ أن أخبرك بأن نُهى صديقتي قد عرضت عليَّ عملٌ جيد، تُريدُ مني عمل تصاميم لإحدى الشركات"

" جيد جيداً، بداية جيدة لممارسة تخصصك "

" قالت إنه عملٌ عن طريق الانترنت، فقط يطلبون مني بعض التصاميم وأُرسلها لهم"

"وهذا أفضل في ظِل وضع الحرب والقصف هذا يكفي خوفي المتواصل على أمي وهي ذاهبة للمشفى"

ابتسمتُ لكلامه وسألتُ الخالة نور "هل كان عمي عبد العزيز دائم القلق مثل آسر يا أمي!"

اشتدت ابتسامتها مثلما تفعل دائماً عند ذِكر العم عبد العزيز وبدأت تحكي عنه "لم يكن شديد القلق والحذر حتى عرفني، فكان يوصلني دائماً إلى الجامعة، ثم يعود لأخذي منها، وبعد أن أنجبتُ آسر كان يُساعدني بالعناية به ومراجعة مواد الجامعة في الوقت نفسه وكنتُ أول طالبة جامعية تذهب للجامعة بصحبة طفلها!

في بادئ كان الأمر مُثير للإزعاج للبقية لكن بعد ذلك بدأ الجميع بتشجيعي ومساعدتي وكان آسر طفل الدفعة المدلل ويعتني به الجميع، وساعدني آسر منذ أن كان طفلاً بهدوئه العجيب، أحمله بين ذراعيّ وتبقى عيناه معلقة تتفحص ملامحي أو نائماً لوقتٍ طويل، وبعد عامين بدأ عمل عبد العزيز يُدخل علينا من المال ما يسد احتياجنا قام بشراء سيّارة لي قبل نفسه لأذهب وأعود من الجامعة بسهولة أكثر وكنتُ من أوائل النساء قيادة للسيّارة، يجلس جواري آسر ونذهب معاً للجامعة وما إن أدخل قاعة المحاضرة حتى يبدأ آسر بالتلويح للجميع والضحك معهم، وأكملتُ الجامعة وتخرجتُ وبصبحتي رفيق دربي عزيز وروح حياتي آسر، يومها وهبني عزيز طقم من الذهب وهو يقول: "سأعوضك يا نوارتي كل ما أخذوه منكِ"

وتذكرتُ تلك الليلة الأولى لنا في هذه الشقة عندما عرضت عليه أن يبيع الأرض التي أعادها يام إليّ ولم يقبل بها وانزعج من عرضي هذا وقطع لي وعداً بأنه سيعوضني عن كل هذا، كان دائم الوفاء بعهوده"

قال آسر مقاطعاً سيل ذكريات والدته: "كان والدي بلا شك عظيماً "

" بالطبع، كان زوج وأب وكذلك طبيب عظيم" أجابته الخالة نور وكلامها يملأه الفخر والاعتزاز به زوجاً وشريك حياة، كنتُ أنظر لآسر وأفكر إن كنتُ سأفخر به بعد أعوامٍ مديدة!

أكملت الخالة نور وقد أخذ كلامها منحنى آخر من نبرة الحزن "وبدأ الأمر حينما جاءني بعد عام من تخرجي وأخبرني بأنه قد حصل على فرصة عمل لي وله في السعودية، كانت فرصة عظيمة

لنا! فرحنا بها وتجهزنا للسفر، هُناك في الرياض كانت المستشفى قد جهزت لنا شقة قريبة منها وعملنا في قسم الطوارئ وسجلتُ آسر في المدرسة وبدأت رحلة جديدة في بلدٍ آخر، كان عزيز قبيلتي وكل عوالمي، كانت عيناه مجرتي وخطوط يديه خرائطي وكلما سرتُ معه أتعمد التأخر عن خطواتِه لأمشي عليها وأسترق النظر إلى عيناه كلما قابلته في المستشفى، في كل مرة يمسك بها براحة يدي ويتأملها ويقول: "بين أصابع كفك الصغيرة تكمن سعاداتي الكبيرة"

أشعر وقتها أنّي خُلقت مجدداً "

كانت الخالة نور تحكي وأعيش أنا وعيناي المعلقة بآسر الأسئلة حتى أمسكتُ بيده وسألته "أنعيشُ حُباً كهذا؟ "

ضحك آسر لسؤالي "نعيشه طبعاً، هذا الأمر في جيناتي كما ترين "

سألته بدلال "وما هو هذا الأمر؟ "

أزاح خصلة شعري عن وجهي وقال مبتسماً "عشقنا"

قاطعتنا الخالة نور "ولكنه لا يتركك حتى تشيبون سوياً " وغلب صوتها الحزن وقالت "إن شاء الله"

اقتربنا منها، كانت تجلس بيننا وقد تسارعت عبراتُها "مؤتمر لأطباء الطوارئ ولأن عزيز كان من أذكى وأهم الأطباء اختارته إدارة المشفى لحضوره في البحرين، كانت المرة الأولى التي يُسافر بها دوننا، بقاؤنا وحدنا شديد الضجر وبين كل لحظة والأخرى يُسيطر القلق على عقلي وقلبي وصمام الأمان بعيد عني، كنتُ أُريد مرافقته ولكن الإدارة رفضت إجازتي، وبعد أسبوع من غيابه وفي اليوم الذي انتظرنا عودته وكانت الفرحة تغمرني وأنا أحكي لكل من في المستشفى عن عودة عزيز قلبي اليوم وأنّي قد جهزتُ غداء فاخر من أجله وبينما أقف مع أحد الممرضات إذا بسرير سيارة الإسعاف يُدخل عبد العزيز مُحملاً على نقالة المرضى! وقد غطى الدم وجهه وغاب عن وعيه، مثل طفلة اكتشفت أنها ضاعت عن والدتها وغشيها الخوف كنتُ أبكي خارج غرفة العمليات، يحاول الجميع مواساتي وبث الطمأنينة بداخلي ولا فائدة للكلمات هُنا!

اتصلتُ لمدرسة آسر وطلبت من باص المدرس ايصاله للمستشفى، وقف بجانبي وسألني "ماذا حدث لأبي؟ "

حاولت اجابته ولكن كانت الحروف صعبة النطق "حـ حـ حـادث "

تمالك آسر دموعه واقترب مني وغمرني بين يديه "لا تخافي يا أمي، أبي رجل شُجاع وقوي "

كنتُ أبكي وأنا أحتضنه وأدعي الله " يـارب .. يـارب "

أخرجوه أخيراً، كان مازال يتنفس وقتها، قالوا لي بأنه أُصيب بشلل كامل، بعد ساعات من الانتظار فاق من غيبوبته ولم يتحرك به غير عينيه، وكانت لا تتحدث، كانت تدمع فقط!

اقتربت منه وهمستُ له" حتى وإن كنت مجرد جثة على هذه الأرض، أُحبك ولن أتخلى عنك، وتبقى أنت أماني الوحيد، والأمل الذي لا أفقده أبداً "

ولكن كان التقرير الطبي يقول عكس هذا، لا أمل له، كان أمراً جللاً لم أتحمله، فكنتُ أبكي كُلما خرجتُ من غرفته، يعود آسر كل يوم من المدرسة ويبقى بجوارنا، توقفتُ عن عملي وكنتُ أهتم به فقط ولم أترك مجالاً لأحد غيري ليهتم به، ومرت الشهور ولا يتغير به شيء! وكلما توالت الأيام زادت عزيمتي بأن أجد له علاجاً، ولكن عبد العزيز تملكه اليأس وفي ليلة سهرتها معه أُحدثه عن الحياة قرر تركها وأغمض عينيه للأبد.

أمسكت بيديه وقلبي ينوح ولم تتوقف دموع الألم في عيناي " أرجوك يا عزيز، لا تتركني.. أرجوك.. أتوسل إليك.. لا يهم كل ما أنت فيه.. لا تتركني.. كان يكفيني أنك تتنفس.. قد عاهدتني أن تبقى معي لماذا خنت عهدك هذه المرة! ما أحببتُ الحياة إلا بك! أيُ الوعود أصدقها الآن! أين أرى الأمان بعدك! ماذا بقي لي! من معي؟ "

اقترب مني آسر وقد علت شهقاته ولم أعرف أنه قد استيقظ واحتضنني وهو يبكي ويقول "الله معنا يا أمي، الله معنا، هذا ما أخبرتني به دائماً، الله معنا "

ودفنتُ عبد العزيز هُناك، وغمرت الوحدة قلبي، وشق الحزن خطوطاً على وجهي لولا يد آسر الصغيرة التي أنقذت بقايا الحياة بداخلي، قررتُ بعدها العودة إلى صنعاء، الحياة صعبة في

السعودية دون رجل، حزمتُ حقائبنا ولم أترك أي شيء يخص عبد العزيز، أخذتُ كل شيء يخصه وتركته هو!

أُمسك بيد آسر، وأمتعتي بيدي الأخرى، وأُغادر من مطار الملك خالد، وأنا أتذكر ذلك اليوم حينما كُنا أنا وآسر وعبد العزيز وكل الحياة والسعادة معنا قادمون من هذا المطار والآن أُغادره أحمل الأسى والوحدة، طفلٌ يتيم وفتاة أرملة والحب والفرح في الأمتعة وقد انتهت صلاحيته!

وسألني آسر "إلى أين يا أمي؟ "

أحكمتُ قبضتي عليه ورفعتُ رأسي وجعلتُ من ظهري مستقيماً وأجبته

" إلى الحياة، نُحاربها ونأخذ الحُب غنيمة "

المحطّة التاسعة

حَرْب

كان يا مكان يغفو الأمل على خد الزمان وتطول غيبوبته، وتسقط الحياة من قلوبنا كأوراق صفراء تجرُّها ريحٌ حارقة ولا تكاد تطير حتى تُصبح رماداً، فيُغطي الرماد صقيع لا مدفئة له، حتى تُمطر السحاب الثقال، تُزهر الأرض وتُكمل السحابة الحياة!

عند باب الخروج من مطار صنعاء، السماء مُظلمة في وضح النهار تحمل مطراً لا يتوقف ولا أملك مظلة! يُمسك آسر بيدي ويسألني "هذه مدينة المطر يا أمي؟ "

أومأتُ له برأسي إيجاباً، استأجرتُ سيارة أجرة ولم أجد مكاناً أذهب إليه سوى منزل خالتي! فأنا أرملة مع طفل صغير ولا يمكنني العيش وحيدة، هكذا تنص قوانين العادات والتقاليد! حينما وصلتُ إلى منزلهم كان استقبال خالتي لي جيداً إلى حدٍ ما.

بقيتُ مع آسر في نفس غرفتي القديمة، أُحدق في وجهه طوال الليل وصوت المطر لا يتوقف! ملامحه تجعل من كل الحروب أكيدة النصر!

في اليوم التالي وجدتُ عملاً في مستشفى جيدة وراتب لا بأس به، وسجلتُ آسر في مدرسة قريبة للمنزل، اشتريتُ سيارة من المال المُدخر لدي ولم أُفكر وقتها جدّياً بالانتقال للعيش وحيدة، كنتُ أعود من عملي وقد أوشكت الشمس على الغروب، أجد آسر منهمكاً في حل واجباته، أسأله عن المدرسة فيحكي لي قصصه التي لا تنتهي، ويسألني كل يوم " إلى متى سنبقى هُنا يا أمي؟ "

" حتى يتوقف المطر "

" ولكنها لم تُمطر منذ أيام! أيُ مطر يا أمي؟ "

" قلتُ لك، حتى يتوقف المطر يا آسر، فلتنتظر توقفه ولا تُزعجني "

وأنام بعدها وهو ممسك بيدي ويهمس لي " أرجو أن يتوقف سريعاً "

بعد أسابيع كنتُ أقود سيارتي وسط ضباب وغيوم ومطر لا يتوقف ذلك اليوم، وصلتُ المنزل متأخرة بسبب زحمة الطُرق، فتحتُ باب غرفتي، كان آسر يجلس جوار النافذة يَعُد قطرات المطر ويُحدّث نفسه "قد لا يتوقف المطر الليلة! "

ضحكتُ لكلامه " هل أحصيت عدد قطرات المطر؟ "

وثب من مكانه واحتضنني وهو يقول " لماذا تأخرتِ اليوم؟ "

"كانت الشوارع مزدحمة بسبب المطر، هل أنهيت كتابة واجباتك المدرسية؟ "

" نعم، ولكن يا أمي.. "

" ولكن ماذا؟ هل هُناك ما يُزعجك؟ "

" لا شيء يُزعجني ولكن.. لماذا لا نرحل عن هُنا بعد توقف هذا المطر؟ "

" أتكره البقاء هُنا؟ "

" لا أكرهه، ولكن لا أُحب هذا المنزل "

" سأفكر في الأمر إذاً "

كان يبدو متعباً، تحسستُ رأسه وسألته " هل أنت مُتعب يا بُني؟ هل تناولت الغداء جيداً؟"

" في الحقيقة، عدتُ متعباً من المدرسة وغفوت ولم أصحو حتى أذان العصر وكانوا بالطبع قد أنهو غداءهم "

" ألا يُنادونك على الغداء كل يوم! "

" لا، أنا أنزل بنفسي "

" ولم يتفقدك أحد منهم حتى الآن! "

" لا أحد يطرق غرفتنا يا أمي "

احتضنته ولم أتمالك دموعي " أنا آسفة، إنها غلطتي، أنا أمٌ مهملة، كان عليَّ أن أفهم ذلك وأشعر بما تُعانيه "

بدأ آسر بمسح دموعي وقال " لا يا أمي، أنتِ تتعبين لأجلي وأنا أعرف ذلك "

جففتُ دموعي ووثبتُ من مكاني "سأذهب الآن لأحضر لك بعض الأكل، حتى أنا جائعة جداً ولم أتناول غدائي، ثم أنني أدفع لخالتي مبلغاً من المال كل شهر مقابل السكن والطعام، لا يتصدق علينا أحد"

ارتديتُ قميص صلاتي وذهبتُ للمطبخ وبدأت بتحضير الأكل وأنا أُفكر أين أذهب؟ وماذا أقول لهم؟ ما حجتي للرحيل؟

وأنا أقف هُناك تتخبط الأفكار في رأسي إذ بصوت أحدهم يقف خلفي وقد أمسك بكتفي شهقتُ والتفتُ له وأنا أرتجف رُعباً، كان سبب رحيلي الأول يقف أمامي مُجدداً!

" هل عدت؟ "

" أجل عدت، يا إلهي! مازلتِ تبدين جميلة حتى وقد سكن الحُزن عينيكِ! "

" ابتعد عني "

" إلى أين أبتعد! وأنا منذهل بما أراه "

اقترب مني وهو يهمس " بطلك الخارق قد رحل هذه المرة" تحسستُ سكيناً وأخذته بسرعة ووضعته قريباً من قلبه وقلتُ بغضب وحزم "سأُنقذ نفسي هذه المرة، أقسم إن لم تبتعد عن طريقي سأغرز هذه السكينة في قلبك "

بدأ بالضحك وهو يقول "هذا ما يُعجبني بكِ حقاً! ولا أدري لماذا! "

" لأنك معتوه، ولا أخشى شخصاً مثلك أبداً، أنا أقوى مما تظن ولن تستطع كسري "

" لا أريد كسرك، ماذا عن الزواج بي! حلالاً! "

" هل جننت؟ والله لا أُبدل بعد عبد العزيز رجلاً أبداً"

ثم أكملتُ كلامي وقد ثار غضبي " وهل أتزوج برجلٍ مثلك! يخون العرض ويستبيح الشرف! ابتعد عني الآن وإلا صرخت وأثرتُ هذا المنزل "

وعدتُ لآسر دون طعام وأكاد أثور من الغيض ما إن رأيته حتى قال لي: "توقف.. توقف المطر يا أمي، راقبته حتى توقف "

" سنرحل إذاً، هيا لنجمع أشياءنا، سنرحل في الغد "

وهذه المرة كنتُ أقف أمام الجميع وأقول للشيخ صالح "اسمع يا عمي، أشكرك على كرمك وحسن ضيافتك إلا أن لك ابنٌ لا يخاف الله ولا أبقى مع شخص مثله تحت سقف واحد، حتى وإن كان العيب يحكم هذه البلد فأنا يحكمني الخوف على نفسي، سأرحل ولن أعود هذه المرة"

كان الشيخ صالح مُطأطأ رأسه وسمح لي بالرحيل دون قول شيء.

وانتصرتُ لنفسي وحققتُ أمنية طفلي، لا شيء غير المجهول أمامي وحرب أكبر!

أخرجتُ الظرف القديم الذي أعاده لي يام وكان مفتاح المنزل بداخله، منزل أبي القديم الذي أكلته النيران، لا ملجأ لي سواه!

اهتديتُ إليه بصعوبة، وجدته في حارةٍ قديمة في الحي السياسي في صنعاء، كنتُ أقف أمامه مع آسر ويسألني "هل هذا منزلنا يا أمي؟ "

" لا أدري، لا أتذكره ولكنه يبدو جميلاً! أيُعقل أن النيران اشتعلت فيه! "

جاءني صوت رجلٍ أعرفه " لا، ليس هو المنزل المشتعل بالنيران، هذا منزلٌ مشتعل بالحب "

التفتُ إليه، كان يقف أمامي يحمل عُكازاً ويبتسم وهو يقول " قد عدتي إذاً! "

" يام! "

" أجل، أنا يام إلّا قدم" قال جملته وهو يضحك بسخرية على قدمه المبتورة سألته "هل تعيشُ هُنا؟ وماذا تقصد عن المنزل!"

"أعاد بناء هذا المنزل عبد العزيز"

التفتُ إلى آسر وقد علت الابتسامة وجهه، نظرتُ إلى المنزل وهمستُ "وفيت بعهدك يا عبد العزيز حياً وميتاً! "

أكمل يام كلامه "أما عن العيش هُنا، أمام منزلك هذا فقد كان قدراً، أعيش في منزل والدي القديم يا نور! "

" وماذا عن قدمك! "

" رحلت في نفس الحادث مع عبد العزيز"

" ماذا تقصد! "

" افتحي باب منزلك الآن وضعي أمتعتك وطفلك وأحكي لكِ عن هذا لاحقاً "
وأشار بيده مودعاً ودخل إلى بيته.
توقفتُ عن سرد الحكاية القديمة، قصة توقف المطر كما أسماها آسر ونحنُ مجتمعون في القبو في منزل يام بعد أن اشتد القصف وسألت نور "وهل يتوقف القصف مثل المطر؟ "
أجابها يام "بالتأكيد يا ابنتي، كل شيء إلى زوال ويتغير دائماً الحال "
" ولكن يا أبي ما هي قصة الحادث؟ "
والتفت آسر باهتمام ليستمع ليام "أنا أيضاً لا أعرف عن هذه القصة يا عمي!"
" الحادث الذي أفقدني قدمي هو نفسه من أفقدك أباك يا آسر، بعد أكثر من شهر قضيته في المستشفى سألتهم عن الرجل الذي أسعفوه معي فقد كانت كلماته الأخيرة لا تُفارقني "اسمع يا رجل، إن أمد الله في عمرك اسأل عن زوجتي وطفلي واعتنِ بهم"
ولم أعرفه وقتها ولا هو فأوصيته بذات الوصية عن زوجتي وابنتي، وبعدها سألتهم عنه، واقتربتُ من غرفته وأنا أجر الكرسي المتحرك بيدي فرأيتُ نور تقف هُناك ومعها آسر وسألتُ الممرضة
" هل هذه المرأة طبيبة هُنا! "
" أجل، هذه الطبيبة نور زوجة الطبيب عبد العزيز، الرجل الذي كان معك في نفس الحادث وتبحث عنه"
" وهل عاش الرجل؟ "
" أجل، ولكن وضعه حرج جداً، وزوجته تعتني به بإصرار، رغم يأس الأطباء من حالته! "
كان الأمر مُحرجاً أن أظهر أمام نور وأنا بهذه الحالة! ولمعرفتي الشديدة بها أدركتُ إن اقتربتُ منها ستبدأ في الاعتناء بي أيضاً، ولم أرى في نفسي سوى إنسان عاجز عن نفع نفسه وغيره!
كنتُ أُراقب نور وقد استنفذت كل القوة والأمل في محاولة انقاذ عبد العزيز ولكن مشيئة الله كانت أن يرحل عنها! يومها أوصيتُ صديقاً لي أن يقف معها مُدعياً أنه أحد أصدقاء عبد العزيز وأن يُقيم العزاء والدفن ويُساعدها بكل معاملات السفر"
ابتسمتُ وأنا أرتعش برداً وخوفاً من القصف "إذاً فقد كنت أنت وراء ذلك الرجل! "

كانت الساعة تجاوزت العاشرة وبدا أن أصوات الطيران قد توقفت، التفت لي آسر "هل نعود إلى منزلنا لترتاحي وتنامي يا أمي؟ "

لكن نور اعترضت كلام آسر " لا، فلنبقى هُنا، أرجوك يا آسر فلنبقى هُنا في القبو لا أُريد العودة إلى المنزل ولا حتى أن أصعد إلى الأعلى فلتصعد أنت وأبي وأبقى أنا هُنا مع أمي "

بدا على آسر الانزعاج وهو يقول " ولكن القصف قد توقف نور! "

تلعثمت نور فجأة وقالت " ولكن أنا خائفة، وأخشى على... أخشى على.. "

سألها آسر بتعجب " على ماذا! "

أجابت وقد ملأ الخجل وجهها " في الحقيقة أنا.. أنا حامل "

أضاء وجه آسر من الفرح وكدتُ أسمع تراقص دقات قلبي ولم يكن يام مبتهجاً في حياته كهذه اللحظة، خبر نور غسل كل ألم وحزن، غطى أصوات الخوف وكأن الطمأنينة قد نزلت من السماء والتحفت بها الأرض!

اقترب منها آسر وأمسك بيديها وهو يقول: "حقاً! سيكون هُنا طفل صغير يلعب بيننا! "

أومأت نور برأسها وهي تضحك لكلامه، قام آسر من مكانه وهو يسأل يام عن مكان الأشياء في المطبخ ليُعد لنا العشاء وصعد مسرعاً بينما كنتُ أسأل نور عن تفاصيل الحمل وأعاتبها بأنها لم تخبرني وأُهدي إليها بعضُ الإرشادات الطبية، عاد آسر ومعه العشاء واجتمعنا حول سفرة الطعام وسألتني نور فجأة "هل كان آسر مشاكساً وهو صغير! "

ابتسم لي آسر وقال: " أخبريها عنّي فكلما حكيتُ لها لا تُصدقني "

ضحك يام ولم أراه يضحك هكذا منذ زمن "يا إلهي يبدو يا نور أننا زوجنا أطفالاً والآن سينجبون طفلاً! "

قلتُ ضاحكة "ويبدو أيضاً يا يام أن آسر كان أكثر حِلماً ورجاحة عقل من الآن! "

جلجلت ضحكة آسر ثم أخذ صوته منحنى آخر "كان الأمر صعباً يا أمي، لم أملك الاختيار، كان أمامي فقط أن أكون طفلاً ذكياً وصبوراً كي نواجه الأيام "

واقترب مني وقبّل رأسي وهو يقول " وكنتِ ومازلتِ أماً عظيمة "

أمسكتُ بيده وأنا أتذكر يده الصغيرة وهي تمسك بيدي وأنا أعمل في المستشفى، أخذته لغرفة الأطباء وأجلسته على الكرسي " آسر حبيبي ابقى هُنا " وأخرجت له كتبه من حقيبته المدرسية "ابدأ بحل فروضك المدرسية حتى أُكمل أنا عملي ولا تتحرك من هُنا، اتفقنا؟" هزَّ رأسه موافقاً وعدتُ لعملي وبعد ساعة عاد إليّ وأمسك بيدي

" آسر! ماذا اخبرتك أن تفعل؟ "

" أكملتُ كل فروضي وراجعتُ كل الدروس، هل يمكنني أن أتمشى قليلاً في المستشفى؟ "

" في داخلها لا، ولكن يمكنك أنا تلعب قليلاً في الحديقة "

كان آسر يعود من مدرسته كل يوم إلى المستشفى وبعد عدة أيام بدأ بالتعرف على جميع من في المستشفى وأصبح صديقهم، حتى أصبح يرتدي مثل الطاقم الطبي للتعقيم!

التفتُ لنور وأنا أقول: "كان طفلاً رائعاً! يحبه الجميع، شعوره بمن حوله عظيم! وكان الجميع يتنبأ له بأنه سيصبح طبيباً عظيماً لِحدة ذكاءه ولتعاطفه الدائم مع المرضى وغيرهم! وأكثر شيء لأنه كان فتاً صبوراً! "

التفتت نور لآسر " ولماذا اخترت غير الطب! "

" لأنه لم يُنقذ أبي "

كان جواب آسر صادماً للجميع، نظرتُ إليه وقد علت الدهشة شعوري!

" أحقاً كان هذا السبب يا بُني؟ "

" أنا آسف على قول هذا الآن يا أمي، ولكن كان هذا السبب الذي تعاركنا لأجله "

سألت نور " أيُ عِراك؟ "

أجبتها ضاحكة "كان آسر لا يُفارقني أبداً، حتى أنه كان ينام على الكرسيّ في مكتبي وهو ينتظرني، وبعد أن اشتد ساعديه كان ينتظرني في المنزل وقد بدأ بإعداد الطعام، وبعد أن أكمل الثانوية بمعدل عالٍ طلبتُ منه أن يتخصص الطب

في ١٨ آذار ٢٠١١ بدأتُ بسؤاله " والآن يا بُني لا أرى لك تخصصاً جامعياً أفضل من الطب"
" ولكن يا أمي انه مجالاً لا أُحبه، يكفي أنكِ وأبي أطباء "
" وهذا ما يجعلني أراه مُناسباً لك "
" وما دخلكِ أنتِ بتخصصي الجامعي! هذا اختياري ومستقبلي "
" أهكذا يا آسر تُجيب والدتك؟ "
" أعتذر ولكن يا أمي هذا أمرٌ راجعٌ لي ولا شأن لكِ به، كان الطب حُلمكِ أنتِ وقد تحقق، الآن أصبح وقت تحقيق أحلامي أنا "
" وما هو حُلمك؟ "
" سأفكر بهذا "
" أرأيت! لا تملك حُلماً، هذا عِنادك لا أكثر! "
" أمي أرجوكِ، لن أدرس الطب أبداً، قد لا أعرف ماذا أُريد ولكن على الأقل أعرف ما لا أُريد وهذا يكفي "
قال جملته الأخيرة وهو يهم بالخروج من المنزل " إلى أين ستذهب؟ "
" لأصلي الجمعة، صديقي ينتظرُني "
" في أي جامع ستصلي؟ "
" ولماذا السؤال؟ "
" لا تذهب إلى ساحة الاعتصام "
" ولماذا؟ ما المشكلة في أن أذهب لأشارك في الثورة؟ "
" أخاف عليك أن يُصيبك مكره "
" لن يُصيبنا إلا ما كتب الله لنا يا أمي "
" ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة "
" يا أمي هذه ثورة، لأجلنا ولأجل أبناءنا، المشاركة بها واجبة علينا، كي نلقى مستقبلاً أفضل "

" لا يهمني هذا، الحديث عن الثورة والمستقبل لا بأس به مع الجميع، أما أنا فأملك من الحياة أنت ولا شيء غيرك، لا أبحث عن مستقبل أفضل ولا عن شيء آخر، أنا يعنني أن يبقى طفلي سالماً "

أراد انهاء الحديث معي وقال "حسناً لن أذهب إلى هُناك، سأصلي في الجامع القريب "

وقد كنتُ متأكدة بأنه يكذب وسيذهب إلى ساحة الاعتصام.

وبعد صلاة الجمعة بدأت أصوات سيارة الإسعاف تدوي، فتحتُ التلفاز وإذا بالأخبار عن مجزرة تحدث في الساحة كانت صور الجرحى ومشاهد الدم تملأ الشاشة، بدأتُ بالاتصال لآسر ولكنه لا يُجيب!

ووجدتُ نفسي أسوق سيارتي وأنا أرتدي قميص صلاتي فقط وأمسك بهاتفي النقال وأتصل مراراً وتكراراً ولكن لا مُجيب!

أوقفتُ السيارة بأقرب مكان للساحة ورحتُ أركض في الشارع وأنادي باسم آسر ولا أرى أمامي أحداً، وكأن الشارع قد خلى من البشر ولا أرى فيه غير لون الدم وأسمع أصوات الصُراخ، أبحثُ عن آسر وأسأل الجميع عنه ولا يُجيبني أحد!

بدأت بالبحث عنه داخل الخيم الطبية وأتفحص المصابين ولا أجده بينهم! قدماي مجروحة من السير حافية ولا أشعر بوجعها، أُريد فقط أن أرى ابني، وبعد ساعة من الخوف والتشرد بين الناس وأنا أتفقد كل مصاب لأرى ابني فقط، أمسك بكتفي أيمن صديق آسر وهو ينظر إلى حالتي " خالة نور! لماذا أنتِ هُنا؟ "

" أيمن، أين آسر؟ هل هو بخير؟ "

" أجل هو بخير، إنه فقط يقوم بمساعدة الناس لا تخافي "

كان أيمن يُحدثني وهو يُصلح من وضع حجابي وقد خلع رِداءه وألبسني إياه، ثم نظر إلى حالة قدماي وهو مندهش "ماذا حدث يا خالة؟ لماذا تبدين هكذا؟ "

" لا أدري، أُريد فقط أن أرى ابني "

خلع أيمن حذاءه وألبسني إياه أيضاً " لا تقلقي، آسر بخير، تعالي معي "

ذهبتُ معه ووجدتُ آسر يقف في خيمة يُساعد أحد الأطباء، أمسكتُ بياقته وقد تفاجئ من وجودي

" أمي! ما الذي أتى بكِ إلى هُنا؟ "

بدأت بضربه وأنا أصرخ " الخوف، أتى بي إلى هُنا الخوف على حُلمي ومستقبلي وحياتي، الخوف عليك أنت، ألا تفهم! قلتُ لك لا يعنيني ما يحدث في هذه البلد، تعنيني أنت فقط، انظر ماذا حدث! كم أرملة وثكلى اليوم! هل تعتقد أن ما يحدث للبلد وأن تُصبح بلداً عظيمة يهمهن! لا، لا يُهم الطفل اليتيم غير أباه! يا حمقى "

" كيف لكِ يا أمي وأنتِ طبيبة تجاهل كل هؤلاء والبحث عن طفلك فقط! "

" الأم بداخلي غلبت الطبيبة "

قلتُ جملتي وقد انهالت دموعي وأنا أحتضن آسر، بعدها بدأتُ بمساعدتهم، وعدنا إلى المنزل ولا تُفارقني رائحة الدماء، لم يحدث أن رأيت دماء مسكوبة بهذا الشكل!

قال لي آسر " أنا آسف يا أمي، آسف لأني كذبتُ بشأن ذهابي للساحة "

" ولست آسفاً بشأن ذهابك نفسه، والتعرض لشيء كهذا؟ "

" يا أمي من لم يمت بالسيف مات بغيره، ومن مات والده شهيداً للوطن هو ذاته من مات والده في حادث سيارة، ولكن الأول يبقى أعظم "

" أخبرتك أن كل هذا لا يهمني، لن تذهب لتلك الساحة مجدداً وإلّا أقتل نفسي وتُصبح يتيم الأب والأم أيضاً، هل فهمت؟ لن تذهب مجدداً "

قلتُ جُملتي بغضب ودخلتُ إلى غُرفتي لأستحم وأغير ملابسي، بعد ساعة عاد لي آسر ومعه مطهر للجروح وبعض القطن، اقترب من سريري وأبعد الغطاء عن قدمي، قبّلها، سحبتها بسرعة، ولكنه أمسك بها مجدداً وبدأ بتطهير جروحي وهو يقول: " أنا آسف يا أمي، لن أذهب إلى هُناك مجدداً "

" وأنا آسفة يا بُني، يمكنك دراسة أيُ تخصص تختاره، لن أقف في طريقك، وسأبقى دائماً أُشجعك"

ابتسمت نور لسماع قصتنا وقالت: "والآن وقد هدأ القصف لنعود إلى المنزل وننام بهدوء، أشعر بالنعاس "
ودعنا يـام وعُدنا لمنزلنا، أغمضتُ عيني وأنا أدعو الله بأن تنتهي هذه الحرب ولا يموت الناس أكثر وتُحقن دماؤنا ودم كل انسان على هذه الأرض.

٨ تشرين الأول ٢٠١٦ تقف نور وقد بدا جلياً على ملامحها تعب الأشهر الأخيرة في الحمل، وآسر بجوارها تُلبسه الساعة التي أهديتها له في عيد ميلاده، سألته بفضول "إلى ستذهب؟"
" إلى عزاء أحد الأصدقاء، ينتظرني أيمن في الخارج "
" أين هذا العزاء؟ "
ضحك آسر وقال " ما هذا السؤال يا أمي؟ حسناً في الصالة الكُبرى "
" لا أعرفها، ولكن رافقتكم السلامة "
ذهبتُ بعدها أُراقب آسر وأيمن من شُباك غرفة الجلوس، وأتذكرهما عندما كانا طفلين وكيف تخرجا من ذات المدرسة والكلية ولم يفترقا أبداً، بدا على أيمن الاعجاب بساعة آسر فأخرجها من يده وألبسها إياه، وبعد أن صعد آسر السيارة اتصلتُ له "هل تتبرع بهديتي لك أيها الوغد؟"
ضحك آسر لكلامي ولم يُعقب" أعدها إلى معصمك وسأُهدي أيمن ساعة مثلها، هذه هديتي لك"
أقفل الهاتف وهو يضحك ويقول " حسناً يا أمي، حسناً "
ذهبت نور لمنزل والدها، وبعد ساعة من خروجهم كان صوت الطيران يُحلق في السماء وبدأ صوت القصف يأتي من بعيد، ورغم اعتيادنا على أصوات الطيران والقصف بين الحين والآخر إلّا أن الارتياب والخوف سكن داخلي، ارتديتُ عباءتي وحجابي وخرجتُ مسرعة أدقُ باب يـام! أجابتني نور "هل حدث شيء؟"
تجاهلتُ سؤالها وذهبتُ إلى يـام أسأله "من أين يأتي القصف؟ أرجوك يا يـام اتصل لأي أحد واعرف عن مكان القصف"
اتصل يـام لأحد أصدقاءه ثم التفت إلينا وقال " قاعة عزاء.. الصالة الكُبرى "

المحطّة الأخيرة

رِحلة

تتأرجح الحياة بين الحُب والموت، نبقى بينهما نعيشُ الفرح مرة ويُسطر الألم نهايات الأوراق! ويطويها الزمان في ركن النسيان! وللذكريات مكانتها التي لا تنطوي، تحملها الأغاني وصوت المطر! وصوت عقارب الساعة التي لم تنكسر!

شهقت نور ولم تحملها قدماها فجلست على الأرض وهي تقول " آسر.. آسر يا أبي هُناك "
أما أنا فركضتُ مسرعة إلى المنزل وأحضرتُ مفاتيح السيارة وأنا أرتجف وأتوسل ليام أن يأخذني إلى هُناك، أخذ يام مفاتيح السيارة مني وبدأ بالقيادة وأنا بجواره ونور في المقعد الخلفي، أشعر أن الروح تتسلل مني، وأن عيناي لا ترى إلّا ضباباً يُغطي شوارع المدينة، أستبعد كل فكرة تقول أن مكروهاً أصاب آسر وأُردد بصوت خفي " آسر بخير.. آسر بخير "
ما إن وصلنا كانت سيارات الإسعاف في كل مكان، والجثث والأشلاء والدم يُغطي الأرض!
حاول الجميع ابعادنا، كنتُ أهيم في المكان وأسأل الجميع " أين المصابين؟ "
قال لنا أحدهم أنه تم نقل أكثرهم إلى المستشفيات وإن لم نجد من نبحث عنه يمكننا العودة إلى هُنا والبحث مرة أخرى!
كانت نور تتصل ولكن هواتف آسر وأيمن مقفلة ولا يمكننا الوصول إليهم، اتبعنا نصيحة ذلك الرجل وبدأنا البحث في المستشفيات حتى اهتدينا إلى مستشفى أجاب شخص فيها أن هُناك رجل يحمل بطاقة صراف آلي في جيبه باسم آسر عبد العزيز!
سألته وتكاد الحروف تختنق في جوفي " أين هو؟ "
أجابني وقد تغيرت ملامحه " في ثلاجة الموتى "
انهارت نور على الأرض وأمسك بها يام وقاموا بنقلها أما أنا فكنتُ أقف مثل فزّاعة خاوية لا روح فيها، قد تم سحب الروح والأمل والحياة مني!

سألني الرجل " تعالي معي لتتعرفي على الجثة "
وقفتُ في مكاني لا أدري هل أذهب معه لأتأكد من موتي الحتمي أم أختار العيش بين الوهم ووجود آسر معي!
أمسك يـام بيدي وقال " لنذهب، ماذا إن لم يكن هو؟ "
ذهبتُ معه أسير في ممرٍ طويل، أعد الخطوة والأخرى وأقترب من نهاية الوجود على هذه الأرض، فتح الرجل الباب واقتربنا من الجثة، وقبل أن يرفع الغطاء رأيتُ معصمه! كانت الساعة على معصمه!
صرختُ وقتها وأنا أقول " لا ... ليس آسر، هذا ليس آسر "
اقترب منه يـام وكشف عن وجهه ولكن كانت ملامحه مختفية! أخذ بطاقة الصراف الآلي من الطبيب ليتأكد من الاسم عليها.
كنتُ أقف بعيداً وأنا أقول لهم " آسر ألبس هذه الساعة إلى أيمن صديقه، أنا متأكدة بأنه لم يأخذها منه مثلما أخبرته، أنا أعرف ولدي لن يأخذ شيئاً أهداه لأحد! "
وبينما يتساءل الجميع عن صاحب الجثة إذا بصوت يصرخ كالمجنون " عمّ تتحدثون! أمي من هذا الذي يرقد هُناك! "
كان صوته يبدو كصدى خيال! أنا أتخيلُ عودته! ابني يقفُ خلفي! إن التفتُ الآن سأراه! وبينما أنا بين السراب والأمل، أمسك بيدي وأعاد كلماته " أمي، سألتك من هذا؟ "
احتضنته كأنما أحتضن الروح والفرح والحياة وكانت الكلمات متلعثمة "أأنت حـ..حي! أأنت تقف أمامي حـ..حقيقة! أخبرتهم .. أخبرتهم أنه ليس معصمك "
أبعد آسر يديَّ وسألني " هـ.. هل هو أ.. أيمن ؟ "
اقترب منه وأمسك بيده ونظر إلى الساعة، ثم رفع الغطاء ليرى وجهه، ثُم عاد يهزني "أيمن! أ.. أيمن يا أمي! رحل أيمن، قتـــلوه، سرقوا روحه! سرقوا رفيق العمر يا أمي! "
ولم ينطق بعدها بكلمة إلى يومنا هذا! رغم عودته للعمل والحياة! لم يستطع الكلام بعدها!

سألتُها " ولِهذا يا جدتي اسمي أيمن؟ "
" أجل، لهذا أسميناك أيمن "
أخرجتُ كتاباً عنوانه " أأخبرك سراً؟ " من درجها وقد رأيتُ اسمها مكتوباً عليه!
" هل هذا كتابك يا جدتي! "
" هذا كتابٌ قديم، مجموعة رسائل جمعتُها في كِتاب "
" هل يمكنني قراءة أيُ رسالة؟ "
" بالطبع يمكنك ذلك "
أخذتُ الكتاب وذهبتُ لمنزل جدي يـام وبدأت بقراءته وهو يستمع إليّ

"تبدو الورق هزيلة، وحيدة، مقاومة لريح تشرين، لا يزورها أحد حتى أنا، كم تُشبهني أوراقي! ما أجملها!
أتُصدق، للحظة توهمتُ نسيانك! بحثتُ عنك ولم أجدك! حاولتُ إعادة ذكرى بيننا ولم تسعفني خلايا الذاكرة، وعدتُ للأوراق أقرأك بين سطورها.
وأكتب إليك رسالة أخرى، أخبرك فيها، أن الحياة التي ظننتها ستلبس الحداد على فراقنا وتطول عِدتها، ما توقفت، وأن أيامي لحقت بها!
ووجدتني أعيش!
أتساءل يا ذكرى العمر الغائبة، أكنتُ أحبك؟ وإن كنتُ كذلك فكيف أنساك! أيُمحى الحب! ألّا يوشم العشق بفؤاد المحبين!
همست لي الروح "وهمك يا فتاة الورق كبير، ما بال أحلامك لا تُفارقه!"
واجهتها " حبُه يا جاهلة كان حياة، ما بالي بفراقه أعيش؟! "
سأهمس إليكَ بما أخفيته عنها
تمر بي الفصول والأيام والبشر، أبتسم وقد عادت لي ضحكاتي القديمة، لا أدّعي السعادة أنا أعيشها، حيث لا يمكنني أبداً ادعاء الشعور، لم ولا أنساك، أنا فقط رضيتُ بُعدك طريق في

الحياة، يبدو الأمر أيسر بتجنيبك من تفاصيل حياتي وروحي، وتصبح الذاكرة أقل ضجيجاً بالهروب مما يشبهك، وأظهر أنا متماسكة قوية أواجه العالم والناس، وأعاود كتابة الواقع وصناعة الأحلام وأدّعي أمامي نسيان تلك الليلة، التي تباعدت فيها خُطانا، ولكن وجدتني هُنا مع رسائلي أحتفل بعامها الأول! "

قال جدي يـام وهو يبتسم " وها هو عامها الثلاثون! "
سألته بفضول شديد " هل ما زلت تُحب جدتي نور؟ "
" ماذا عنك؟ هل تُحب جدتك نور؟ "
" بالطبع أُحبها، هي تحكي لي القصص دائماً، وتصنع لي كعك لذيذ، وتقرأ لي القرآن حتى أنام "
" وماذا عنّي أنا؟ هل تُحبني مثلها؟ "
" وأحبك أنت أيضاً "
احتضنني جدي وهو يقول " هل تعلم أنك كثير الكلام! "
ضحكتُ وقلت له " وأحب سماع القصص والحكايات "
عدتُ أسأله " متى سيعود الكلام إلى أبي؟ "
" عندما يعود له الأمان "
" وكيف يعود هذا الأمان! "
تحدث جدي بجديه وقال " أأخبرك سراً؟ "
" أجل أخبرني يا جدي، أحب الأسرار وأحفظها جيداً "
" يُمكنك أنت أن تُعيد له الأمان والحياة معاً "
" وكيف هذا؟ "
" ارسم معه، اجعله يرسم كل شيء يُريد اخبارك به "
" وهل سيعود له الأمان! "
" أجل، الرسم مفتاح الحياة وصمام الأمان "

" حسناً سأفعل إذاً "

وقبل أن أذهب قال جدي " ولا تنسى ابقى دائماً بقربه "

وكنتُ بعدها لا أُفارق أبي، وأرسم معه دائماً، أما جدي يام فكلما عدتُ اليه أجده ممسكاً بكتاب الرسائل يقرأه ويعيد قراءته!

وجدتي نور تعود كل يوم من عيادتها مع غروب الشمس وعندما أسألها "أليس هذا العمل مُتعب يا جدتي؟ "

تقول لي مبتسمة " لم تنهي الرحلة بعد "

" أيُ رحلة؟ "

" تتغير الفصول بين مطر نيسان وتساقط الأمنيات والأحلام التي نجمعها تحت الشبابيك، وشمس آب وقد بدت علامات الفرح جليّة لنا حتى نظن أن السماء ستصفو أبد الدهر! وتسير بنا رياح تشرين فلا ندري أيُ أرض تُبادلنا الحياة ولأي قلب نسوق الحب غمامة! ويسرق برد كانون الأمل ويُعلن عن توقف قطار الرحلة السابقة لتبدأ أخرى قد التحفت بغطاء البرد وأشعلته من فتيل الحياة دفئاً وحباً وهكذا لا تنتهي الرحلة! "

" وكيف كانت رحلتُكِ يا جدتي؟ "

أمسكت جدتي بيدي ودخلت إلى المنزل، طلبت مني الانتظار حتى تُغير ملابسها، أنتظرها وأنا أستمع لأمي تحكي لأبي عن مشروعها القادم وعن تلك الصديقة الغريبة التي لا تُشجعها أبداً، ينصتُ إليها أبي ورغم أنه لا يُجيب تستمر بالحديث معه!

قاطعتُ حديثها " أمي، ماذا سنسمي أختي التي في بطنك؟ "

" لم نُفكر بعد، هل لديك اقتراحات أستاذ أيمن؟ "

" لا، سأبحث لها عن اسم جميل "

خرجت جدتي من غرفتها، وقد غيرت ملابسها وتعطَّرت بعطرها الذي أحبه، استنشقتُ عطرها وأنا أقول " ما أجمل رائحتك يا جدتي "

ابتسمت لكلامي وأخذت بيدي إلى المطبخ وأعدت كوب قهوة، وكأس حليب دافئ لي،

وقالت: " ما رأيك أن نشربهم في الشرفة؟ "
صعدتُ معها إلى الأعلى، وضعت وشاحها على كتفيها، وارتدت حجابها وفتحت الشرفة، جلستُ معها ممسكاً بكأس الحليب الدافئ وهي تحتسي قهوتها وأعدتُ سؤالي "كيف كانت رحلتك يا جدتي؟ "
" انظر، جدك يام يجلس في شرفته ويحمل عوده القديم! يبدو أنه سيعزف عليه "
ضحكت " أجل يبدو أنه سيبدأ بالعزف الآن "
" هذا الشارع كان الجميع فيه يتساءل عن الأرملة وطفلها! التي تخرج أول النهار وتعود مع غروب الشمس! ويضعني الجميع في محل الشبهات، حتى بدأوا بسؤالي عن عملي وعرفوا أني أعمل كطبيبة، بعدها أصبحتُ امرأة عظيمة! كان حكمهم مبني على مجال عملي! لا على أخلاقي وطيبة أصلي! ما أصعب هذا! "
" ماذا إن كانت وظيفتُك مختلفة؟ "
" لم أُفكر بهذا، كان جيشي وسلاحي هو الإيمان، كنتُ مؤمنة بأنّي أستحق الحياة على هذه الأرض، والحياة هبة من الله وهو معي دائماً "
ارتشفت جدتي من قهوتها وتساءلت " ما هذه الأغنية التي يعزفها جدك؟ "
فبدأ جدي بالغناء
كنت أحلم لما ناديتك بسافر
مع عيونك في شعاع الفجر باكر
والله أعلم إنّي صادق
كنت أحلم إنّي عاشق!
لا أخاف ولا أضيع ولا أفارق
وايش أقول غير إنّي آسف ... وايش أقول!
أنا خانتني العواصف والفصول

وايش أقول غير إنّي آسف ... وايش أقول!
أنا خانتني العواصف والفصول
التقينا في مدينة .. وفرقتنا ألف مينا ..
اغفري للريح والموج والسفينة ..
كانت الرحلة حزينة
كانت الرحلة حزينة .. للأسف

وقفتُ على الشُرفة وبدأتُ بالتصفيق لجدي يـام وجدتي نور تضحك وتُصفق له معي!
أمسكت جدتي بيدي وقالت "اذهب لجدك يـام وأبلغه أن يتجهز غداً للاحتفال بعيد ميلادي الخمسين في أي مكان خارج المنزل "
" حقاً! وهل سنذهب لمكان جميل؟ "
" بالطبع، أتشك باختياري للأماكن الجميلة؟ "
" لا، وسأخبر أمي وأبي أيضاً "
" هيا بسرعة أخبر الجميع "
ذهبتُ بسرعة أزفُ إليهم الخبر وأقول لهم " جهزوا هداياكم لجدتي نور غداً "
في اليوم التالي كُنا نجلس حول طاولة جميلة في مطعم جميل وقد انتهينا من الأكل وطلبت جدتي القهوة والحلويات لنا وكانت تتحدث مع جدي يـام حول العديد من المواضيع ثم اقترحت
" ما رأيك أن تفتح معهداً لتعليم الرسم يا يـام؟ "
أجابت أمي " فكرة عظيمة يا أبي وسأساعدك أنا بهذا"
أومأ أبي رأسه اعجاباً بهذا، فوافق جدي على هذا الاقتراح، تركتهم يُناقشون أمور المعهد الجديد وذهبتُ للعب وبينما يُراقبني أبي وقد كدتُ أسقط على الأرض سمعتُ صرخته لأول مرة!
" أ..أيـــــمن"

التفت له الجميع وركضتُ مسرعاً إليه، أمسكت جدتي نور فمها بكفيها وهي تُحاول منع نفسها من البكاء واحتضنته أمي وقد بدأ بالكلام!

" أ أنا ..أ أتكلم! "

" أجل، أنت تتكلم يا بُني، سنذهب غداً لطبيب مُعالج لتستعيد النطق بشكل أسرع "

قالت جدتي نور وهي تمسح دموع الفرح من عينيها!

واليوم لا يتوقف أبي عن الكلام أبداً، وكُلما تركتُ كتبي وبدأت بالكتابة على الكمبيوتر جاء إلي يسألني " ماذا تفعل! وقد تركت كتب المدرسة! "

" أحكي قصة عظيمة يا أبي "

" ولمن تحكيها! "

" للعالم بأسره "

وتبدأ أختي مشاكساتها التي لا تنتهي " أعتقد أنه لن ينجح في امتحان الثانوية العامة يا أبي " صحيح! اسم أختي اخترته في ذلك اليوم..

بعد أن أوشكت الشمس على الغروب ونحن نسير باتجاه سيارتنا وأمسك أنا بيد جدي يام وجدتي نـور وأبي وأمي وراءنا، توقفتُ فجأة

" لحظة، وجدتُها "

سألتني أمي غاضبة "وما الذي وجدته الآن! "

" اسم أختي، سنسميها باسم جدتي نـور الحقيقي، اسمها الأول "

قالت جدتي متعجبة " ومن أين تعرف اسمي؟ وأنا لا أعرفه! "

التفت لجدي يـام مبتسماً " قال جدي يـام أنه يعرفه "

" هل حقاً تعرف اسمي؟ " سألته جدتي وقد بدا على وجهها الذهول

" أجل أعرفه، أخبرتني به أمي وأنا صغير "

والتفَّ الجميع حول جدي وأمي تسأله " وما هو اسمها إذاً؟ "

أجابها جدي مبتسماً " سحـابة "